التعليق على رسالة

الوسائل المفيدة للحياة السعيدة

للشيخ السعدي رحمه الله

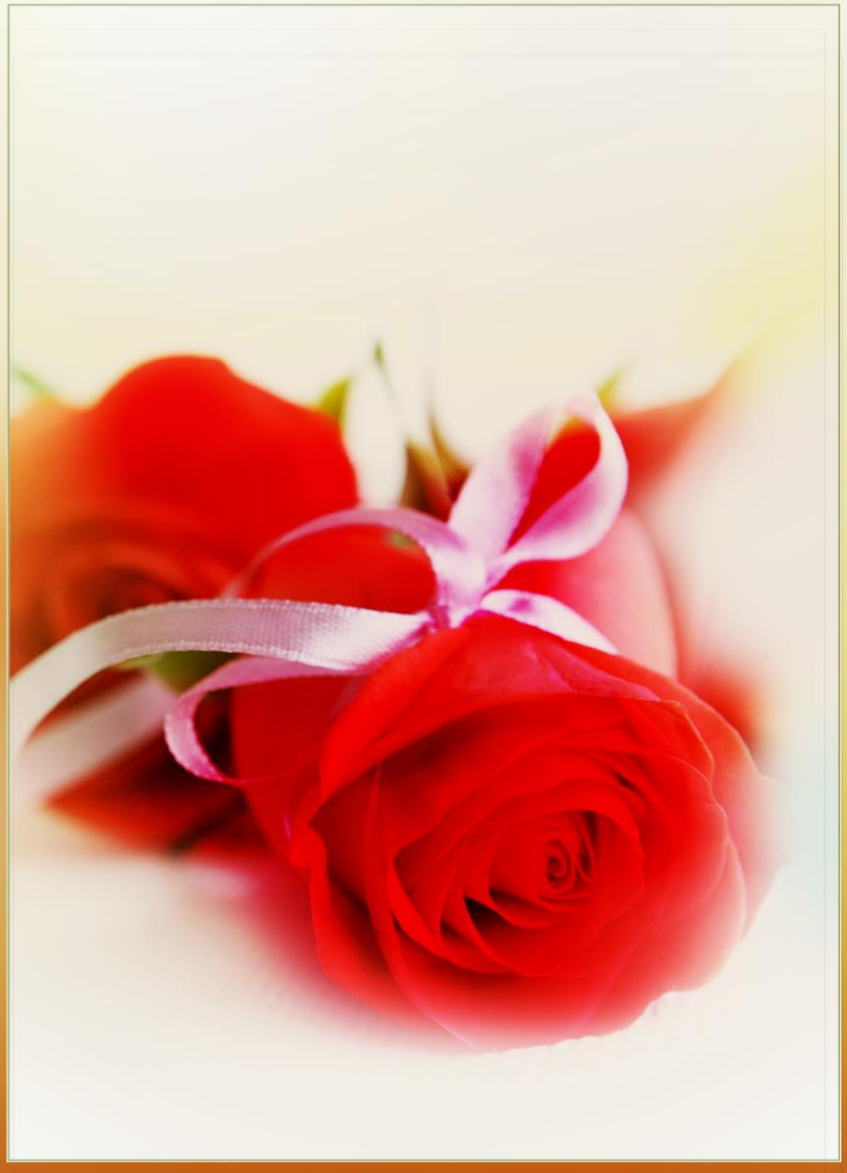

أ . أناهيد السميري

ألقي في الشرقية يوم الإثنين 19 / 3/ 1433هـ

بسم الله الرّحمن الرحيم

أخواتنا الفاضلات، إليكن سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

https://anaheedblogger.blogspot.com/

تنبيهات هامة:

- ✓ منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- ✓ هذه التّفاريغ من اجتهاد الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- ✓ الكمال لله –عزَّ وجلَّ–، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

∏

نقل لكلام الشيخ الذي تم شرحه في هذا اللقاء:

الحمد لله الذي له الحمد كله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم.

أما بعد:

فإن راحة القلب، وطمأنينته وسروره وزوال همومه وغمومه، هو المطلب لكل أحد، وبه تحصل الحياة الطيبة، ويتم السرور والابتهاج، ولذلك أسباب دينية، وأسباب طبيعية، وأسباب عملية، ولا يمكن اجتماعها كلها إلَّا للمؤمنين، وأمَّا من سواهم، فإنها وإن حصلت لهم من وجه وسبب يجاهد عقلاؤهم عليه، فاتتهم من وجوه أنفع وأثبت وأحسن حالًا ومآلًا.

ولكني سأذكر برسالتي هذه ما يحضرني من الأسباب لهذا المطلب الأعلى، الذي يسعى له كل أحد.

فمنهم من أصاب كثيرًا منها فعاش عيشة هنيئة، وحيي حياة طيبة، ومنهم من أخفق فيها كلها فعاش عيشة الشقاء، وحيي حياة التعساء. ومنهم من هو بين بين، بحسب ما وفق له. والله الموفق المستعان به على كل خير، وعلى دفع كل شر.

1-وأعظم الأسباب لذلك وأصلها وأسُّها هو الإيمان والعمل الصالح، قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[1]

فأخبر تعالى ووعد من جمع بين الإيمان والعمل الصالح، بالحياة الطيبة في هذه الدار، وبالجزاء الحسن في هذه الدار وفي دار القرار.

وسبب ذلك واضح، فإن المؤمنين بالله الإيمان الصحيح، المُثمر للعمل الصالح المُصلح للقلوب والأخلاق والدنيا والآخرة، معهم أصول وأسس يتلقَّون فيها جميع ما يرد عليهم من أسباب السرور والابتهاج، وأسباب القلق والهم والأحزان.

-يتلقَّون المحاب والمسار بقبول لها، وشكر عليها، واستعمال لها فيما ينفع، فإذا استعملوها على هذا الوجه. أحدث لهم من الابتهاج بها، والطمع في بقائها وبركتها، ورجاء ثواب الشاكرين، أمورًا عظيمة تفوق بخيراتها وبركاتها هذه المسرَّات التي هذه ثمراتها.

-ويتلقَّون المكاره والمضار والهم والغم بالمقاومة لما يمكنهم مقاومته، وتخفيف ما يمكنهم تخفيفه، والصبر الجميل لما ليس لهم منه بد، وبذلك يحصل لهم من آثار المكاره من المقاومات النافعة، والتجارب والقوة، ومن الصبر واحتساب الأجر والثواب أمور عظيمة تضمحل معها المكاره، وتحل محلّها المسار والآمال الطيبة، والطمع في فضل الله وثوابه، كما عبر النبي-صلى الله

(1) [سورة النحل: 97]

عليه وسلم–عن هذا في الحديث الصحيح أنه قال: "عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيرًا له وليس ذلك لأحد إلَّا للمؤمن".

فأخبر–صلى الله عليه وسلم–أن المؤمن يتضاعف غُنمه وخيره وثمرات أعماله في كل ما يطرقه من السرور والمكاره. لهذا تجد اثنين تطرقهما نائبة من نوائب الخير أو الشر فيتفاوتان تفاوتًا عظيمًا في تلقِّيها، وذلك بحسب تفاوتهما في الإيمان والعمل الصالح. هذا الموصوف بهذين الوصفين يتلقَّى الخير والشر بما ذكرناه من الشكر والصبر وما يتبعهما، فيحدث له السرور والابتهاج، وزوال الهم والغم، والقلق، وضيق الصدر، وشقاء الحياة وتتم له الحياة الطيبة في هذه الدار. والآخر يتلقَّى المحاب بأشرٍ وبطرٍ وطغيان. فتنحرف أخلاقه ويتلقَّاها كما تتلقَّاها البهائم بجشع وهلع، ومع ذلك فإنه غير مستريح القلب، بل مشتَّته من جهات عديدة، مشتَّت من جهة خوفه من زوال محبوباته، ومن كثرة المعارضات الناشئة عنها غالبًا، ومن جهة أن النفوس لا تقف عند حد بل لا تزال متشوِّقة لأمور أخرى، قد تحصل وقد لا تحصل، وإن حصلت على الفرض والتقدير فهو أيضًا قلق من الجهات المذكورة.

اللقاء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الحمد الله الذي يسَّر لنا هذا اللقاء، ونسأله-سبحانه وتعالى-أن يجعله لقاءً مباركًا مرحومًا...اللهم آمين.

اليوم وغدًا موضوعنا الكلام حول هذه الرسالة العظيمة التي كتبها الشيخ السعدي-رحمه الله-وهي بعنوان:

~ الوسائل المفيدة للحياة السعيدة ~

الكلام حول الحياة السعيدة تشتاق النفس إليه كثيرًا خصوصًا وأن الناس اليوم يعيشون أزمات متكرِّرة، ودائمًا تسمع عن أمراض نفسية وأصبحت كلمة: (الاكتئاب) من الكلمات المتداولة، والحزن والضيق كلام متداول.

فهل إلى مخرج من سبيل؟ نعم، السبيل واضح وله أسبابه الشرعية التي لابدّ من نشرها، سنقرأ من الرسالة التي بين أيديكم وهي سهلة يسيرة، ومجرد قراءتها تبيِّن معناها.

يقول الشيخ:

الحمد لله الذي له الحمد كله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم.

أمَّا بعد: فإن راحة القلب وسروره وزوال همومه وغمومه، هو المطلب لكل أحد.

يعني كل الناس من مطالبهم الرئيسة أن تذهب هموم قلوبهم وغمومها، وعلى ذلك لابدَّ أن تبقى ذاكرًا أن قلبك الذي هو محلُّ نظر الربِّ سبب رفعتك عنده أو سبب عكس الرفعة، فمصدر صلاحك في الدنيا والآخرة هو قلبك، كما هو معلوم من حديث النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-: ((إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ))[1] فلذلك كان القلب من أهميَّته أن انشراحه سبب لسعادة الإنسان، وانقباضه سبب لغمَّة الإنسان.

قال:

وبه تحصل الحياة الطيبة ويتم السرور والابتهاج، ولذلك

أي: لراحة القلب وسروره أسباب، ذكَر ثلاثة أسباب:

(1) رواه مسلم في صحيحه (كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله، 2564)

قال:

ولذلك أسباب دينية، وأسباب طبيعية، وأسباب عملية.

من أجل أن يكون قلبك مرتاح هناك ثلاثة أنواع من الأسباب:

1- دينية

2- عملية

3- طبيعية

أسباب دينية: يعني تدخل على نفسك مجموعة مفاهيم دينية تسبِّب لك أن ترى الدنيا بصورة صحيحة.

أسباب طبيعية: أي تجدها في الحياة، يعني كل الناس إن وجدوا هذه الأسباب أصبحوا في سرور.

أسباب عملية: تقوم بها من أجل أن تدخل السرور على نفسك.

قال:

ولا يمكن اجتماعها

يقصد الأسباب الثلاثة.

قال:

كلها إلا للمؤمنين، وأما من سواهم فإنها وإن حصلت لهم

وإن حصل لهم شيء من هذه الأسباب.

قال:

وإن حصلت لهم من وجه وسبب يجاهد عقلاؤهم عليه، فاتتهم من وجوه أنفع وأثبت وأحسن حالا ومآلا.

هذا الكلام معناه أن ليس فقط أهل الايمان يصلون إلى السعادة، ممكن أن يصل غيرهم إلى السعادة.

لكن هناك مشكلتين عند غيرهم.

1- أن تناولهم للسعادة صعب، وأنت بطريقة أيسر تستطيع أن تصل إلى نفس النتيجة.

2- لا تثبت أقدامهم على أرض السعادة.

يعني يبذلون الجهد الكثير من أجل أن يسعدوا، وأنت تبذل جهد أقل وتصل، حتى لمَّا يصلون لا تثبت أقدامهم على هذه السعادة.

قال:

ولكني سأذكر برسالتي هذه ما يحضرني من الأسباب لهذا المطلب الأعلى، الذي يسعى له كل أحد.

فمنهم من أصاب كثيرًا منها فعاش عيشة هنيئة، وحيي حياة طيبة، ومنهم من أخفق فيها كلها فعاش عيشة الشقاء.

قسَّم الناس إلى أقسام:

1) قسم أخذوا الأسباب كلها فعاشوا عيشه هنيئة.
2) قسم تركوا الأسباب وعاشوا عيشة الشقاء.
3) قسم أخذ جزء وترك جزء، حياته ستكون بين السعادة والشقاء.

ثم بدأ بأول سبب:

وأعظم الأسباب لذلك وأصلها وأُسُّها هو: الإيمان والعمل الصالح.

أي: أول وأهم الأسباب التي تجعلك من السعداء هو الايمان والعمل الصالح.

قال:

فأخبر تعالى في ذكر العبد الذي يعمل صالحًا بالحياة الطيبة في هذه الدنيا وسيبقى أجره على الله في الآخرة.

المعنى أنك لا تظن أبدًا أن الاستقامة على الدين تطيِّب آخرتك ولا تطيِّب دنياك، هذا من وحي الشيطان، بل الاستقامة على الدين سببٌ لصلاح الدنيا والآخرة، لكن الناس لا يفقهون سنَّة الله.

انظري لسورة الضحى، عندما يخاطب الله-عزَّ وجلَّ-نبيَّه-صلى الله عليه وسلم-يقول له سنَّته في الحياة أن كلها عبارة عن أزمات تبدأ ضيقة ثم تتَّسع يقول له-سبحانه وتعالى-: {وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى}[1] هذه الآية تحمل معنيين:

الأول: سنَّة الله في الحياة أن كل أمر تدخله يبدأ ضيقًا ثم يتَّسع، يقول-سبحانه وتعالى-للنبي-صلى الله عليه وسلم-: {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى}[2] يعني أول الأمر ضيق ثم يتحول إلى سعة {وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (7) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى}[3] فالمقصد إن كنت

(1) [سورة الضحى: 4]
(2) [سورة الضحى: 6]
(3) [سورة الضحى: 7، 8]

مؤمنًا وتعرف الله، تعرف أنَّ بعد هذا الضيق فرج، وتكرِّر على نفسك أن آخر كل أمر لابدَّ أن يكون خير من أوَّله، لأن الله يقول: {وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى}.

المؤمن يعرف الله وإذا عرف الله طابت حياته، كل الإشكال دائر حول أن عدم الإيمان أو ضعف الإيمان سببه عدم معرفة الله.

كيف تؤثِّر عدم معرفة الله على الحياة؟ الله يربِّيك ليلًا ونهارًا، فإذا لم تعرف الله فلن تعرف على أي شيء يربِّيك، لن تعرف إلى أي شيء يريد أن يوصلك، لن تعرف سنَّته في معاملة خلقه، عندما يجهل الانسان هذا كله يصبح أمام لُغْز لا يستطيع تفكيكه، فإذا عجز عن تفكيك حياته وأسباب الضيق وأسباب السعة، يقول لماذا تبدأ الأمور بالعكس ثم أجد أن بداية كل أمر في ضيق وأتخذ قرارات على أساسات البدايات؛ لأنه لا يعرف الله؛ دائمًا قراراته على البدايات.

مثلًا هذه شابة تزوَّجت، لو لم تعرف أن سنَّة الله أن كل بداية لأمر هو الضيق ثم يتَّسع، وبداية الأمر ليست يوم أو يومين إنَّما بداية الأمر في الحياة الزوجة السنة والسنتين والثلاثة والأربعة والخمسة سنين، ثم تتحوَّل الحياة إلى سعة لابدَّ، الذي يعرف الله ويعرف سنَّته تطيب حياته، وتعرف الله لما يقوى إيمانك، فكلَّما قوي إيمانك، هذا دليل أنك تعرف الله.

{وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (4) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (6) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (7) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى}

كيف يستقبل الإنسان الأقدار التي تجري عليه؟ وقتما يكون مؤمنًا يعرف الله بصفاته وأسمائه وأفعاله، يعرف أن من أسمائه أنه لطيف قريب مجيب، من أسمائه أنه جبَّار، أتظنُّ أنه ينكسر قلبك ولا يجبره لك! أنت فقط قل له: يا جبَّار. وترى كيف يجبرك جبرًا، ألا ترى أن من جبره النسيان؟ كم من الأمور دخلنا فيها وفقدنا شيء عزيز علينا وقلنا إن الدنيا ستصبح سوداء إن لم يكن هذا موجودًا، ثم جبرك جبرًا، ثم عشت حياتك وأتت السعادة وهذا المحبوب مفقود.

أنت ترى أن النسيان من آثار جبره، يجبرك بأن تنسى، فمن لم يعرف الله لابد أن يشقى، لا يكون الإنسان سعيدًا إلَّا بمعرفة الله، ولذلك لابد أن نضع يدنا تمامًا على هذا السبب؛ لذا نقول: السبب الرئيس للسعادة هو الايمان والعمل الصالح.

نحن غالبًا نركِّز على العمل الصالح، يعني مثلًا يقول أشعر بضيق فيعمل أعمالًا يجد نفسه حتى بعد الأعمال في ضيق، ثم يقول: أنتم قلتم لي: سينشرح صدرك عندما تصلِّي. وقلتم: صُم، تصدّق، قُم الليل، اقرأ القرآن...سينشرح صدرك!

والحقيقة أن العمل الصالح تابع للإيمان، والإيمان أساسه معرفة الله ومعرفة من تعامل، القضية ليست مجرد أن تسعى ببدنك، أصل سعيك هو بقلبك ولا يسعى القلب إلَّا بمعرفة الله.

تسمع الله وهو يخبرك عن نفسه أنه الملك العظيم القدوس السلام، ألست تكرِّر بعد كل صلاة: (اللهم أنت السلام ومنك السلام) لو آمنّا باسم: (السلام) فقط لطابت الدنيا؛ لأنك تقول له: أنا أعلم أنك سالم من كل نقص وعيب، لا يمكن أن يكون شيء من صفاتك فيه نقص، بل صفاتك كلها كاملة، فمَنْعُك ليس من بُخل إنَّما من تمام الحكمة، أترى كيف حبس يوسف-عليه السلام-

وله الكرامة عند ربه حبسه بعض سنين لكي يخرج في أحسن حال! فلا يمكن أن يكون الكامل إلَّا سلامًا-سبحانه وتعالى-سالم من كل نقص وعيب.

لو عرفت لماذا أنت تردِّد اسمه: (الصمد) عندما تقرأ سورة الاخلاص بعد كل صلاة وفي أذكار الصباح والمساء؛ لكي تقول لنفسك: برغم ضعفي وبرغم فقري وبرغم عجزي وبرغم النقص الذي فيَّا، لكن الإخلاص كنزي؛ لأنه سيسبِّب لي الركون إلى القوي العزيز الغني القادر-سبحانه وتعالى-.

دائمًا تقول لنفسك: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ}[1] تقول: أنا لست وحدي أنا في الأرض واحد لواحد في السماء، وهو كامل في صفاته سيِّد قد كَمُل في سؤدده، ركني الشديد فما تجد نفسك في وحشة ولا ضعف، وطول الوقت معك من تركن إليه، من تتَّكل عليه، من تطمئن وتستأنس بقربك منه، لو تعرف ما معنى الصمد، ما معنى رب الناس، وملك الناس، وإله الناس، لو تعرف أنك عبد في الأرض لملك في السماء يعطيك لا يأخذ منك، ولهذا لو عرفت صفات الملك لتمَّت لك السعادة.

إذًا من أهم أسباب السعادة الإيمان، العمل الصالح تابع للإيمان.

ما هو الايمان؟

رأس الايمان وحقيقته معرفة الله، من أين تعرف الله؟ من أسمائه وصفاته.

وأنت تردِّد ليلًا ونهارًا أسماءه وصفاته، وأنت تقول: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ}، وأنت تقول: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ}، تقول: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} ...إلى آخره.

كيف سيتصرَّف شخص يعرف الله؟ يخبرنا الشيخ-رحمه الله-:

وسبب ذلك واضح: فإن المؤمنين بالله الإيمان الصحيح، المثمر للعمل الصالح المصلح للقلوب والأخلاق والدنيا والآخرة.

عندما يدخل الإيمان إلى القلب يصلحه، على ذلك ماذا تظن في قلبك قبل الإيمان؟ القلب عبارة عن ماذا؟ القلب عبارة عن مكان مليء بالأمراض، أنت ابتليت بالأمراض، الله يخلق الخلق ويخلق لهم طباعهم وهي تدور بين الخير والشر، لكن غالبًا الطباع بدون الايمان تميل إلى أن تتحوَّل ضد الانسان.

حتى كرم الانسان، يعني كريم وهي صفة حسنة يمكن أن تتحوَّل ضده فيصبح مبذِّر ويصبح مرائي، يصبح يكرم من أجل أن يُثني عليه الخلق وهذا الرياء، أو يكرم فيزداد الناس طمعًا فيه فيكره الكرم، فممكن تتحوَّل الصفة الحسنة بدون إيمان إلى صفة سيئة ضد الإيمان، لكن حين يدخل الإيمان يصلح ما في القلب من فساد.

(1) [سورة الإخلاص: 1، 2]

معرفة الله مثل الماء الذى ينزل من السماء، يقول الله-عزَّ وجلَّ-: {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا}[1] الأودية عبارة عن قلوبنا، والماء الذي نزل من السماء عبارة عن العلم به-سبحانه وتعالى-والماء الذي نزل من السماء يخرج الأمراض، هكذا العلم عن الله يخرج الأمراض من قلب العبد.

لذلك قال الشيخ:

وسبب ذلك واضح: فإن المؤمنين بالله الإيمان الصحيح، المثمر للعمل الصالح المصلح للقلوب...

فإيمانك وعملك الصالح أول أثر له أن يصلح قلبك ويخرج أمراضك مثل الحسد، الحقد...حين تشعر بالضيق لأن أحد أتته نعمة فتقول لنفسك: أليس الله هو الرزاق...كما رزقهم يرزقني الذي يناسبني وتتفكك الأمراض بمعرفة الله.

القلب ممتلئ بالأمراض، ويصلح القلب عندما يأتي العلم مثل السيل، يخرج الأمراض إلى الخارج ثم يفككها، وأنت تقوم بعملية التفكيك عندما يدخل قلبك علم عن الله، مثلًا شعرت بحقد تجاه شخص، تردِّد على نفسك: ألست تحب أن يعفو الله عنك أليس الله قال: {إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيرًا}[2].

إذًا الإيمان يصلح القلوب، فالقلب يكون شديد التعلُّق بمحبوباته، وحين تفهم قول النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-: ((أَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ))[3] تعرف أن الحياة مهما طالت لابد أن المحبوبات تفارقك، مهما طال الوقت، حتى أن بعض الفُرقة عجيبة غريبة، شخص أحبه تمام المحبة ثم استيقظ الصبح أبغضه! لكي يحقِّق الله هذه السنَّة: ((أَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ)).

إذا عرفت هذا الأمر، تهون عليك المحاب، ولذلك قال-صلى الله عليه وسلم-: ((أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا))[4] أنت تفهم الحياة لا تجعل سعادتك رهنًا لمحبوبات لابد أن تفارقها لا تجعل سعادتك بهذه الصورة، إنَّما أحبب من لا تفارقه، من يكون أنيسك في كل وقت. فكل هذا ناتج الإيمان، كلَّما آمن العبد وعرف الله، أصلح قلبه وقلبه هو مصدر سعادته.

عليك أن تفكِّك نفسك تفكيكًا، ناقش نفسك مناقشةً، تأخذ العلم مادة خام، تعرف أن الله صمد أنه وهَّاب أنه لطيف أنه جبَّار، تفهم هذا كله، وكلَّما حصل لك شيء تأخذ قلبك وتعالجه وتعالجه، تناقشه تقنع نفسك وتحاورها، لكن وأنت جاهل ما تعرف الله، لا تستطيع محاورة نفسك، فالسعادة منبعها من الداخل وليس من الخارج.

أدخل على نفسك علم صحيح وهو علم الإيمان، وسترى كيف تعالج جروحك، والموفَّق من وفَّقه الله.

(1) [سورة الرعد: 17]
(2) [سورة النساء: 149]
(3) رواه البيهقي، وحسَّنه الألباني.
(4) رواه الترمذي، وصحَّحه الألباني

قال:

فإن المؤمنين بالله الإيمان الصحيح، المثمر للعمل الصالح المصلح للقلوب والأخلاق والدنيا والآخرة، معهم أصول وأسس يتلقون فيها جميع ما يرد عليهم من أسباب السرور والابتهاج، وأسباب القلق والهم والأحزان.

يعني أنت الآن تملأ قلبك إيمانًا بالله ومعرفةً به، قلبك سيواجه الأقدار أيًّا كانت أحزانًا أو سرورًا، فمن أجل أن تتعامل معها كما يحب الله، لابد أن تمتلئ بسلاح وهو معرفة الله وهو الإيمان والعمل الصالح.

الإيمان بمعرفته بالقلب والعمل الصالح بالجوارح، كلَّما عملت صالحًا وسجدت اقتربت، وكلَّما اقتربت ناجيت، وكلَّما ناجيت الله أول مردود عليك أن يزداد قلبك إيمانًا.

إذًا الإيمان والعمل الصالح دائرة، ويزيد إيمان قلبك عندما يمتلئ عمل صالح، كأن معك سلاح تواجه به الأقدار خيرها وشرها، كأن معك مادة تفسِّر بها الأحداث وتترجمها.

قال:

يتلقون المحاب والمسار بقبول لها

يقبلون الذي يعطيهم الله. أحيانًا نشعر أن المحاب لا ينبغي لها جهد، المحبوبات في الدنيا لابد أنها مشوبة بالكدر، حتى المحبوب مشوب بالكدر ويأتي واحد منَّا لا يعرف هذه القاعدة يأتيه اكتئاب، يقول: أنا ليس لي حظ في الدنيا حتى عندما أفرح لابد أن أتكدَّر حتى الفرح يحتاج إلى جهد. نقول: هذه الصفة في محاب الدنيا تذوب لو عرفت كيف تعاملها.

أمثلة حول عدم قبول النعم:

- عندما تولد ابنتي بالسلامة والحمد لله وخرجت من الأزمة، والولادة روح تخرج من روح، خرجت وطابت، ثم نمسك الطفل الذي رزقنا ربنا فنقول: عينه صغيرة، أنفه كبير، رأسه كذا...! هذا أول دليل على أنك لا تعامل الله كما يحب ويرضى، هؤلاء المؤمنين يتلقَّون المحاب والمسار بقبول لها، لا يوجد أحد يعيب النعمة.
- عندما يدخل الأبناء للمنزل ظهرًا والحمد لله نحن في أمن وأمان ونأكل ونشرب...ثم يقولون: لا يوجد إلَّا هذا الطعام! هؤلاء تمرَّنوا على انتقاد النعمة على يد الكبار، هم لم يقولوا هذا الكلام على الطعام لكن أصبحت سياسة حياة، فعندما يكون أسلوب الشخص أنه كل ما أتت عليه نعمة انتقدها ويقول لو كانت كذا وناقصها كذا، تكون هنا بداية الخروج من الحياة الطيبة، لأن أول شرط في الحياة الطيبة وقت ما تأتيك المسار أن تقبلها كما هي.

فتاة تقدَّمت في العمر ولا زوج لها، ثم جاءها زوج فقبلته ودخلت إلى الحياة الزوجية، فكل يوم تُخرج عيوبه، ثم نخبرها أنها في نعمة وأصبح لها بيت بعد أن لم يكن لها. فتقول (لكن) وتضع قائمة من النواقص، وهذه عين عدم الرضا عن الله.

القضية أنك تعامل الله، فهذه عين عدم الرضا عن الله، ولابد أن تكون سبب لشقاء الإنسان.

المحاب أصعب من المكاره في التعامل معها؛ لأن المكاره حولك من يعينك على الصبر عليها، لكن المحاب حولك من يقلِّل قيمتها، قوم حسَّاد وقوم لا يعرفون الله، فلمَّا تأتيك النعمة يقلِّلون من قيمتها.

قال:

وشكرٍ عليها، واستعمال لها فيما ينفع

هناك قوم معهم إيمان ويعلمون أن الله من صفاته أنه **حكيم** ويقسِّم الأرزاق على ما يناسب الخلق، ويقسِّم العطايا التي تكون سببًا لصلاح حياة الإنسان، فأول ما تأتيهم المسار يقبلون ثم يشكرون.

عليك أن تَقْبَل ولا تنتقد، إذا كنت تعيب، فهذه النعمة ما شكرتها كما ينبغي، لذا اقبلها واعلم أنها أتتك في الوقت المناسب تمامًا، ولن تنفعك إذا تقدَّمت دقيقة أو تأخَّرت دقيقة، لا تنفعك إلَّا في الوقت الذي أعطاك الله، أي نعمة تقول فيها بنقص فأنت تتهم الحكيم في حكمته.

لو أنّ شخصًا أتته عطيَّة من مَلِك، ورسوله واقف عند الباب وأصبح يقلِّبها ويقول لكن ولكن...، هل يستطيع أن يفعل مثل هذا؟ لا، بل سيقول: يكفي أنها جاءت من عنده ويكفي اهتمامه بي...ولكن الملك العظيم الرب الكريم كامل الصفات الوهاب الذي أنت بدونه لا شيء، أهذا ردُّك على عطاياه؟!

فالإيمان أول السعادة، الإيمان يجعلك تعامل عطايا الله بالقبول ثم الشكر، ثم هذه العطيَّة لا تطغى بها، استعملها فيما ينفعك؛ ولذلك كل عطيَّة بليَّة يختبر الله فيها رضاك عنه، يختبر شكرك له، يختبر انتفاعك به، واعلم أنَّ الحكمة مناطة بالشكر، فكلَّما كنت شاكرًا، دلَّ ذلك على أنَّك حكيم.

الرابط بين الحكمة–ضدّ السَّفه–وبين الشكر: المرء كلَّما قلَّ عقله، قلَّ شكره، وكلَّما زاد عقله، زاد شكره.

ودليله في سورة لقمان حيث أخبرنا الله أنه آتى لقمان الحكمة قال–سبحانه وتعالى–: {أَنِ اشْكُرْ لِي}[1].

فهناك علاقة بين الحكمة والشكر {وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}[2]، من قال إن الله في حاجة لشكرك! شُكْرك لنفسك.

(1) [سورة لقمان: 14]

(2) [سورة لقمان: 12]

مثلًا صغير سفيه لا يعرف حقائق الأمور وتعطيه شيء بذلت الجهد من أجل أن تعطيه إياه وهو لا يقدِّره، ثم تقول له: لأن عقلك ما تصوَّر وما استوعب قيمة ما أعطيتك لذلك أنت لست شاكرًا.

نبض قلوبنا ليس بيدنا، نَفَس رئتنا ليس بيدنا، حركة أقدامنا ليس بيدنا، فنحن لا حول ولا قوة لنا إلَّا بالله، فعندما لا تشعر بهذا كله تأتيك عطايا الله منه، يأتيك الحول والقوة منه-سبحانه وتعالى-وأنت ترى نفسك كأنك تملك الشيء، فالنتيجة أن تقول من الطبيعي أن قلبي ينبض ورئتي تتنفَّس ورجلي تمشي! كل هذا من الطبيعي ومن أين أتى الطبيعي وهي عطية من عند الله تستوجب الشكر!

هل من الطبيعي أن تكون مبصرًا؟ ما بال من أصيب؟ ما بال من ولدوا ولا يستطيعون أن يسمعوا؟ فكل النقائص في الدنيا تقول لك: كل ما تملكه عطية من الله متَّعك الله به.

فعندما تصبح حسَّاسًا تجاه النعم معناه عندك عقل تفكر، وكل نقص تراه أمام عينيك يجعلك ترجع إلى نفسك وتقول: الحمد لله الذي وهبني هذا الشيء، الحمد لله الذي أعطاني، فيصبح عندك سمع وبصر يترجم الحقائق ويكون عندك عقل يدركها، أصبحت حكيمًا وأول ما تصبح حكيمًا لابد أن تكون شاكرًا.

قم بزيارة المستشفيات لتنظر كيف أعطاك الله الاستواء النفسي والبدني، أولئك عند الله مأجورين وكل واحد على حسب بلائه، لكن أوجد الله النقائص في الأرض ليعلم أهل الكمال أن كمالهم عطيَّة، ونقص أهل النقص طريقهم للجنة، فكلَّما زدت عقلًا وحكمةً زدت حساسية تجاه النعم.

انظر من يدرس صعوبات تعلم لابد أن يشكر الله كثيرًا! الصعوبات ليس لها علاقة بالذكاء والتخلف العقلي ولا يخلو منها أحد، إنسان قدرته طبيعية وذكاؤه طبيعي لكن عنده خانة واحدة في عقله أقل من باقي الناس، وإذا تريدون معرفة نعمة الله عليكم وتخرجون أولادكم من صعوبات الدراسة لابد أن تعرفوا أن الناس قدرات، وأن الموهبة تأتي من الله يعطي كل إنسان شيء.

المقصد من أجل أن تكون سعيدًا لابد أن تقبل نعمة الله ثم تشكر النعمة ثم تستعملها فيما ينفعك.

قال:

فإذا استعملوها على هذا الوجه، أحدث لهم -من الابتهاج بها، والطمع في بقائها وبركتها، ورجاء ثواب الشاكرين-أمورًا عظيمة تفوق بخيراتها وبركاتها هذه المسرات التي هذه ثمراتها.

فالنعمة تُدخِل عليك السرور لكن الذي يدخل السرور عليك أكثر أن تعاملها كما يحب الله، فلا تحوِّل النعمة إلى نقمة عليك.

من أجل أن تبقى النعمة عليك وتجرُّ سرور آخر، استعمل هذه الثلاثي معها:

1- ارضَ بها.

2- اشكرها.

3- استعملها فيما ينفعك.

وسترى أن الله يشرح لك صدرك لهذه النعمة، فالنعمة نفسها تشرح صدرك وهذا التعامل مع النعمة يبقي انشراح الصدر طويل المدى. قد يأتي شيء تفرح به في أول الأمر ثم ينقلب عليك؛ لأن الذي فرحت به من الأقدار قد لا يُستعمل فيه ما يريد الله من الرضا والشكر والعمل.

نقف وقفه أمام كلمة الشكر ونرى كيف يكون الإنسان شاكرًا؟

يكون شاكرًا بالقلب واللسان وكيف يكون ذلك؟

هناك ثلاث خطوات في الشكر:

الأولى: نسبة النعمة مجرَّدة، لا تتكلَّم عن أحد وأنت تتكلَّم عن نعمة الله، ولا تتكلَّم على الأسباب ولا تُثني عليها، أولًا تنسبها إلى الله نسبة محضة.

الثانية: تحمده إمَّا حمدًا بصيغة الحمد، وإمَّا بدوام الثناء على كمال صفاته.

الثالثة: الشاكر دائمًا ذاكر للعطايا.

أول الشكر ورأسه: أن تنسب النعمة نسبة محضة أي خالصة لله؛ لأن الله يخبر عن قوم يعاملهم بعطائه كما أخبر في سورة هود ويكشف عنهم الشر وماذا يقولون؟ {ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ}[1]

ماذا تعني ذهب السيئات عني في الواقع يعني؟ كأن السيئة مشيت على رجليها، كأن لا صارف للشر، كأن لا مُذهب للمرض، واضحة كيف هي الالفاظ؟ يحصل فيها حالة من الانزلاق بعيد عن الشكر.

يصبح أول الشكر نسبة النعمة نسبة محضة إلى الله، يعني ما أعطاني هذا من فضل ربي ما رزقني إلَّا الله، لم يشفنِ إلَّا الله.

ولا تَمِلْ قلوبكم للحديث عن الأسباب، فالأسباب ما وهبها إلَّا الله ولا نفعك بها إلَّا الله {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ}[2] أنت لا تشكر التربة الخصبة ولا الشمس المشرقة ولا الهواء ولا المطر ولا السحاب، بل تشكر من نفعك بها، من جَمَع لك هذا (فَلَق الحبَّة، أخرج الثمرات...).

(1) [سورة هود: 11]

(2) [سورة الواقعة: 63، 64]

اسمع ما قال إبراهيم-عليه السلام-في قومة يقول لهم كلام عن الله، كلام يدور في حياتنا، يطعمني ويسقين: {وإذا مرضت فهو يشفين}[1] هو وحده، وفي الحديث ((يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ))[2].

يعني لا أنت أطعمت نفسك ولا كسيتها ولا أنت هديتها كل ذلك بمنّته المحضة لا جاءت بنفسها ولا أنت أتيت بها، إنَّما وهبك إيَّاها موهبة ولذلك يقول لك: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ}، {أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ}؟ هذه العوامل كلها تعتبر ثلاثي، هذا ما تحرثون من فواكه وخضروات والنار والماء هذه ثلاثي الطبخ، هذه الثلاثة من أين جاءت؟ من الله. إذًا ما تطبخه وتطعمه أطعمك إيَّاه.

النسبة المحضة لله، فلا تُدخل الطبيب ولا المزارع ولا الشركة...ولكن لو أن العامل أتاك بماء فلا تسبُّه ولا تطرده بل قل له: شكرًا بطرف لسانك، والحمد كله لله.

لكننا نرى ضعف اليقين حولنا، تجد الناس قلوبهم ممتلئة حمدًا لمن مدَّ يده، والحمد كله لله، ولو مُنعت مِن الله ترى كل السخط على هذا الشخص!

الخطوة الثانية: أن ينطلق هذا على اللسان فنراك ذاكرًا مثنيًا على الله في كل مكان، وهذا معنى {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}[3].

فمثلًا شخصٌ يقول ربنا نجَّانا، حمانا، يسَّر لنا، ثبَّتنا...كل الثناء لله، وشخص آخر يذكر قصة مأساوية نصف ساعة ويحكي تفاصيل المتاعب ثم في النهاية (الحمد لله خرجت!) هذا ليس مِن {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}، كل اللطف الذي مرَّ بك حدِّث به عن الله، فسِّر الأحداث التي تدور حولك بما تعرف عن أسمائه وصفاته.

كذلك في تربية الأبناء أخبرهم أن السفينة التي تجري في البحر ما أجراها إلَّا الله، حتى الرياح في الجو ما جعلها تهب إلَّا الله، هذا أصل الشكر، أن تنسب النعمة محضة إلى الله، وأن تحدِّث بكمال صفات الله، الشاكر هو الذي يتحدَّث عن الله برضا في كل مكان، تجده يكلِّمك عن الله راضيًا، ويقول: آوانا، أعطانا، سقانا، لطف بنا، أخرجنا من الأزمات، كل هذا تثني عليه وتحمده.

فهل تعرِف الملِك العظيم؟ هل تعرف أنه قدُّوس وسلام ومؤمن ومهيمن لا يخلف وعده إذا وعد خلقه {وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}[4]؟

ولهذا لابدَّ وأنت شاكر أن تتيقَّن بوعده ويكون أمام عينيك قوله تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ}[5].

---

(1) [سورة الشعراء: 80]

(2) رواه مسلم في صحيحه (كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، 2577)

(3) [سورة الضحى: 11]

(4) [سورة الروم: 6]

(5) [سورة إبراهيم: 7]

الخطوة الثانية: الشاكر دائمًا ذاكر للعطايا.

وكيف ذلك يكون؟ مثلًا آخر الشهر الذي مضى أفلسنا، ثم ربنا أعطانا من حيث لا نحتسب، من ثم هذا الشهر نعيد نفس الأزمة فتقول لنفسك في هذه الأزمة: مثلما أعطاني الشهر الذي مضى سيعطيني هذا الشهر. فالشاكر ذاكر، لا ينسى العطايا.

أمَّا غير الشاكر ينسى عطايا الله، وينسى أنه نجَّاه بالأمس ورزقه قبل الأمس، وأعطاه. فهل يتركه اليوم؟!

كثير من الموظفين والموظفات دخلوا في سوء الظنِّ، أريد أن أبني بيتًا قبل أن يتركوني أولادي! وأبني لي مستقبلي، هل الذي حماك في بطن أمك وأخرجك صغيرًا وأطعمك وسقاك ثم بلغت هذه القوة هل سيتركك! من وظَّفك؟ من علَّمك؟ من أعطاك المال؟ أليس هو الله! كيف سيتركك؟! كما تولَّى أمرك في الأولى سيتولاك، لكن لمن؟ لمن أحسن الظن.

يأتي من يقول: لكن يوجد في الواقع كذا وكذا. تذكَّر: (أنا عند ظن عبدي)، من ظنَّ أن ربه يتركه في آخر حياته، سيأتيه ظنه، والذي أحسن الظن بربه وتعلَّق به ولم يكن همومه أن يبني هنا، سيأتيه ظنه.

أنت تعرف أنك ذاهب آخر حياتك، فالمفروض أن تفكِّر في حسن الخاتمة، وتفكِّر في لقاء ربك الذي ستكلِّمه ما بينك وبينه ترجمان. وأنت الآن تفكر بتأمين المستقبل، أين تؤمِّن مستقبلك هنا أم هناك؟! ثم بعد هذا تجد الحياة ضيِّقة، ثم ترى ناسًا يضيِّعون عشر سنين وخمس عشرة سنة بأخذهم قرض على عشرين سنة! تضيق على نفسك وأولادك على وقت لا تضمن بقاءك فيه!

كل هذه سياسة لا تناسب من كان مؤمنًا، كل مؤمن يقول: {لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ} سيزيدني قناعة وليس شرط مالًا، بل تزيد قناعاتي عن الدنيا وتقلُّ اهتماماتي وطمعي، فيقلُّ صرفي فتطيب لي الحياة.

أول ما يأتيك القدر الذي يسرُّك، عليك أن:

1- تقبله ولا تنتقده.

2- ثم تشكره.

3- ثم تستعمله فيما ينفعك.

وستلحقك مسرَّات زائدة على المسرَّة الرئيسة.

نأتي لهم وهم يتلقَّون المكاره. يقول الشيخ: أول سبب من أسباب السعادة الايمان بالله والعمل الصالح. الذي يؤمن بالله ويمتلئ معرفة بالله يعامل الأقدار كالتالي: أي مسار تأتيه يتعامل بالمعاملة الثلاثية السابقة.

أمَّا المكاره، قال:

ويتلقون المكاره والمضار والهم والغم بالمقاومة لما يمكنهم مقاومته وتخفيف ما يمكنهم تخفيفه، والصبر الجميل لما ليس لهم عنه بد، وبذلك يحصل لهم من آثار المكاره من المقاومات النافعة، والتجارب والقوة، ومن الصبر واحتساب الأجر والثواب أمورًا عظيمة تضمحل معها المكاره، وتحل محلها المسار والآمال الطيبة، والطمع في فضل الله وثوابه.

نرى شخصًا تعرَّض للمسارين: مسار المقاومة ومسار الصبر.

مسار المقاومة معناه: أن العبد لا يقع في قلبه يأس من روح الله أبدًا، ولا كفر بنعمة الله؛ لأنه كما أخبر-سبحانه وتعالى-أن بعض الخلق يؤوس كفور يجمع بين صفتين كما في سورة هود، ومعنى يؤوس: يعني ييأس أن هذه النعمة تعود مرَّة أخرى.

كلَّما كان العبد مؤمنًا، ظنَّ في ربه ظنًّا جميلًا، ما يظن في ربه إلّا خيرًا، ينزع النعمة يختبرك ووراء نزعها مصالح أعظم مصلحة من نزع النعمة، لو نجحت في الاختبار جاءك أحسن منها، إذًا المصائب والمضار لابد أن تعرف أن لها مسارين في التعامل:

1. معاملة المقاومة: تقاوم اليأس، فاليائس عبد يشك في قدرة الله.
2. ومعاملة الصبر: يعني الشيء الذي لا مردَّ له تعامله بالصبر.

مثلا أنت في وظيفة وفي مدرسة قريبة وجميلة ومباركة ومجاورة لبيتك ومديرة مناسبة. فتنتقل المديرة لمدرسة أخرى، تقولين من أين لي بمديرة مثل هذه؟ نقول: الذي وهبك الأولى يهبك الثانية.

امرأة عندها عاملة في المنزل لها عشر سنين درَّبتها وعلَّمتها ثم ذهبت، فتعامل الله باليأس تقول: من أين تأتيني واحدة أحسن من هذه أو مثلها؟! الذي أتى بالأولى يأتي بالثانية.

الله-عزَّ وجلَّ-يأخذ منك ليعطيك أحسن، وفي الوسط أنت مختبر بين النزع والعطاء، تحسن الظن أم تيأس من روح الله أو تكفر بالحياة التي عشتها وتعامل الله معاملة اليائس وتظن به شرًّا وتظن أنه لن يعطيك! أحسن الظن فهو عند ظنك.

أنت تراه شرًّا وتعمى عن رؤية الخير فيه، يعطيك نفس القدر، لو نجحت في الاختبار يبصِّرك بخيريته وإذا لم تنجح تعمى عن خيريته.

وصف الله في كتابه أن بعض الخلق إذا نزع الله منهم النعمة أصبح يؤوس كفور. يؤوس يعني ييأس أن الله يبدِّله نعمة أحسن من التي فاتت، لكن عندما تنزع منك النعمة افهم سنَّة الله، والنعمة قد تُنزع وتبدَّل بخير منها وفي الوسط بين النزع والعطاء فترة اختبار، إن أحسنت الظن وكنت واثقًا في قدرته أعطاك عطاء مدهشًا، وإن أسأت الظن أعطاك وعميت عن رؤية عطائه.

لمَّا تنزع النعمة وأنت قوي في أمَلِك في الله وقوي الثقة في قدرة الله، تجد نفسك تقاوم وتدفع اليأس لأن اليأس يأتي من الاكتئاب.

ألا ترى عطاء الله ليوسف-عليه السلام-حُبس ولمَّا أعطاه، أعطاه عطاءً مدهشًا! هذا من سنَّة الله.

ألا ترى أن أمورًا تُحبس عنك زمنًا ثم تأتيك من كل باب؟ أتعرف لماذا حصل لك ذلك؟ لكي يقال لك: إن كل ضيق وراءه فرج وأن عطاء الله بعد الضيق عطاءً مدهشًا، إذا أعطى أدهش-سبحانه وتعالى-.

ربك المِلك سلام أن يكون بخيلًا، بل هو-سبحانه وتعالى-تامّ الكرم، يده سحَّاء الليل والنهار، يعطي عباده بلا حساب لكن يعطيهم ما ينفعهم ويصلحهم، ثم إذا نجحوا-وأسأل الله من فضله في الجنات-يكون العطاء المطلق لا يقطعه شيء، لكن هنا في الدنيا العطاء محدود.

من أجل أن تنجح إذًا في المكاره، ومن أجل ألَّا تتحوَّل المكاره إلى سبب الاكتئاب، كل ما تستطيع أن تقاومه من المكاره قاومه، وذلك الذي ليس وراءه فوت عامِل الله فيه بالصبر، فإن عاملته بالصبر عاملك بالجبر، حتى إنك ترى المفقود كأنه صفحة حياة انقلبت وكأنك لا تقرأها ولم تقرأها سابقًا! فجَبْره يفوق الوصف.

يذوق جَبْره مَن تعلَّق به جابرًا لكن لا تطرق أبواب الناس تظنُّ أن الجبر عندهم، واعلم أن هذه العطايا تعطى لمن كان معه إيمان، فكلَّما زاد إيمانك، زاد جبر الله لقلبك، كلَّما آمنت أن الله هو الذي يجبرك زاد جبره، ولذلك نحن في السجدتين نقول واجبرني، هذا طلب دائم لأنك طوال الحياة تنكسر، أتعرف تكسيرات القلوب لماذا؟ لتبقى واحد في الأرض لواحد في السماء، لو اجتمعت هذه القاعة ولو اجتمع الناس ولو اجتمعت هذه الدولة وهذه الأرض لتجبر قلب عبد ما استطاعوا.

ولذلك تجد عند بعض أشخاص يُحرمون الجبر! فهناك امرأة مات لها ولد من تسع سنين ولسبب أو لآخر ما جبرت، كانت تحكي لي تفاصيل موته كأنه بالأمس حصل الحدث! لتعرف أن هذا النسيان والجبر من العطايا، فلا تجعل الناس حولك يشوِّهون لك الجبر!

فقد تجد نفسك-الحمد لله-وقت هذه الأزمة أتت وذهبت وأنت صابر ثم تعدَّيتها ومارست حياتك الطبيعية، ويأتي الناس يقولون لك: كأن ما مات عندك أحد! كأن ما صار لك شيء! الخلق يثيرونك على الرب، يكفِّرونك نعماءه، اعلم أن الله ينزل المصاب وينزل معه جبره، فمن شرح صدره لاستقبال الجبر جبره الله، والله هو الذي يحبس قلب العبد أن يتمزَّق، وكم مررنا بأزمات لمَّا ننظر إليها الآن من بعيد نقول: كيف مررت بها؟! كيف صبرت كيف تحمَّلت كل هذا! وهذا من آثار جبره-سبحانه وتعالى-للخلق.

ليس المصاب الوحيد الموت، هناك أنواع من المصابات، إذًا لمَّا تنزل عليك المصابات ينزل معها جبر، افتح قلبك من أجل استقبال الجبر وهذا من عطاياه، كلَّما زدت إيمانًا زادك الله جبرًا.

إذًا الصبر أمر لا تتكلَّفه، أول ما تستقبل الحدث احبس نفسك ذاك الوقت القليل وترى كيف يصبِّرك الله، من تصبَّر صبَّره الله، وكيف يصبِّره؟ ينزل على قلبك الجبر وهذا الجبر يدفع عنك الاكتئاب ويدفع عنك رياح الذاكرة، فنحن أحيانًا يجبرنا الله فنقوم بإخراج صور ونخرج الذكريات ونراجعها. فنحن بهذا نكسر الجبر، هذا كله ضد ما يحب الله.

المطلوب منك أن تتعامل مع الأقدار كما يحب الله، فاذا كانت خير وسرور لا تكن أشرًا بطرًا وإذا كان مما يزعجك لا تكن يؤوسًا كفورًا جازعًا من أقداره، عالجها كما يحب الله، سيتحوَّل الأمر إلى أن تنكشف عنك الغمَّة، وتدخل إليك السعادة والاستقرار النفسي.

سؤال من إحدى الحاضرات: هل يعتبر الإنسان يعترض على قضاء الله إذا تكلم في المشكلة (الفضفضة)؟

الفضفضة أكبر مشكلة نعيشها، هذه الفضفضة تكبِّر لك الموضوع، عندما تعيشين المسألة بدون ما تسمعينها غير حين تقولينها لنفسك فتكبر، فلما يكون بين المرأة وزوجها مشكلة وانتهى الحدث وذهب ونسيت الكلام الذي قاله، ثم تتصل على أحدهم وتفضفض، عندها تتذكَّر. فلمَّا تعيد على نفسك الكلام أنت أول شخص يتأثر وتزيد عندك المشكلة، هذه الفضفضة احبسوها. اعبدوا الله بالتوحيد؛ أي لواحد أشتكي، أنا عبد هنا في الأرض أشتكي لواحد في السماء، ولا تتكلَّم إلَّا في حال المشورة، والمشورة أن تخبر واحد فيه صفات معيَّنة، لا تخبري أخت لا تحب الرجال أو حصل لها موقف معهم وتخبريها القصة وتختارين كيفما شئت! لأن طلب الشورى عبادة لابد أن تكوني فيها تقيَّة، لا تشاوري شخص يعطيك رأي على هواكِ أنت.

يقول:

كما عبَّر النبي -صلى الله عليه وسلم-عن هذا في الحديث الصحيح أنه قال: ((عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن)) [رواه مسلم].

المؤمن الشخص الوحيد الذي ينتفع بكل ما يمرُّ عليه لأن إيمانه يفسِّر له الأقدار التي تجري عليه، يقول لنفسه عندما يأتي ما يعجبه: إن الله يعاملنا بفضله، عندما يأتي ما لا يعجبه يقول لنفسه: إن الله يختبرنا ويبتلينا يريد أن يرفع مكاننا يريد أن يمحِّصنا. فأنت مع الأقدار وأنت مؤمن ترى آثار صفات الله في عطايا الله.

كم مرَّة وأنت في مكانك ما تكلَّمت إنَّما مرَّت على خاطرك أمنية فأعطاك! الله-سبحانه وتعالى-معك يسمعك ويراك ويعلم حركة قلبك التي لم تنطق بها، ثم يعطيك على أمانيك، إذا كان قريب أقرب من كل شيء إلى كل شيء كيف على غيره تتَّكل وكيف بغيره تتعلَّق وكيف يكون في قلبك ثقة في غيره! حتى تشرح وجهة نظرك لأحد ما وتطلب منه شيء أحيانا تتعب لكي يعطيك الشيء الذي يوافق مرادك، نترك الله الملك العظيم القريب المجيب ونعلِّق قلوبنا بالخلق!

قال:

فأخبر -صلى الله عليه وسلم-أن المؤمن يتضاعف غنمه وخيره وثمرات أعماله في كل ما يطرقه من السرور والمكاره.

أي شيء يأتيك من مسرَّة أو مكروه فهي فرصتك وأجرك وبركتك متى؟ حين تتعامل معها كما يحب الله.

لهذا تجد اثنين تطرقهما نائبة من نوائب الخير أو الشر، فيتفاوتان تفاوتًا عظيمًا في تلقيها، وذلك بحسب تفاوتهما في الإيمان والعمل الصالح. هذا الموصوف بهذين الوصفين

أي الإيمان والعمل الصالح.

يتلقى الخير والشر بما ذكرناه من الشكر والصبر وما يتبعهما، فيحدث له السرور والابتهاج، وزوال الهم والغم، والقلق، وضيق الصدر، وشقاء الحياة،

كل هذا يزول لأنه يعامل رب يعرف كمال صفاته.

وتتم له الحياة الطيبة في هذه الدار.

والآخر يتلقى المحاب بأشر وبطر وطغيان، فتنحرف أخلاقه ويتلقاها كما تتلقاها البهائم بجشع وهلع، -طماع وخائف-ومع ذلك فإنه غير مستريح القلب، بل مشتتة من جهات عديدة، مشتت من جهة خوفه من زوال محبوباته، ومن كثرة المعارضات الناشئة عنها غالبا، ومن جهة أن النفوس لا تقف عند حد بل لا تزال متشوقة لأمور أخرى، قد تحصل وقد لا تحصل، وإن حصلت على الفرض والتقدير فهو أيضا قلق من الجهات المذكورة.

هذا كله في الأشياء التي يحبها، فالذي يكون ناقص في الايمان كيف يتلقَّاها؟ يتلقَّاها بِأشر وبطر وطغيان يعني أول ما يعطيه الله يستغنِ عن الله، يظنُّ نفسه أنه مادام تملَّك إذًا لن يحتاج. وممارسة الاستغناء لا نملُّ من تكرار شرحها لأنها أول ما ذكر-سبحانه وتعالى-من الأخلاق الفاسدة عندما نزلت أول سورة على النبي-صلى الله عليه وسلم-وصف الله-عزَّ وجلَّ-للنبي-صلى الله عليه وسلم-أعظم خلق يفسد على الإنسان حياته {أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى}[1] الاستغناء هذه ممارسة قد يعيشها الإنسان بتكرار وهو لا يشعر، تكون في أمس الحاجة لعطيَّة الله، يعطيك الله تجد نفسك مستغنٍ عن الله بما أعطاك الله!

(1) [سورة العلق: 7]

مثلًا: تصوَّري عندك ضيوف وطعام العشاء ليس على عدد الضيوف، بعد ما تجهزين العشاء تقولين: بسم الله اللهم بارك لنا فيما رزقتنا يا رب جمِّلنا. كل هذا لأنك تجد الأكل قليل، ولكن في المرَّة الثانية أتاك الضيوف والأكل كثير عندها ما يحتاج دعاء ولا حتى بسم الله!

مثال آخر: عندما أطبخ لأول مرة الأكل، والزوج ينتظر ويريد أن يقيس مقدار النجاح، أقول: بسم الله. وأدعو الله، أمَّا في المرَّة العاشرة من الطبخ لا توجد كلمة (بسم الله)، واضح الاستغناء!

فأول ما يعطيك ويغنيك وييسِّر لك الأمر ردة الفعل المباشرة أن تستغني عنه، هذا كله من ضعف الإيمان، وما أتاك من النعيم لا يبارك لك فيه إلَّا إذا كنت متعلِّقًا بالله الذي أعطاك النعيم أمَّا أن تستغني عنه من المؤكَّد أنه سيتحوَّل النعيم إلى عذاب عليك.

قال: يصبح عنده عندما يستغنى صفتين (الطمع والهلع)، الهلع مثلًا أُم لا يوجد لديها أطفال ثم رزقها الله أولادًا، وهو الذي وهب بعد خمسة أو عشر سنين، فتبقى الأم خائفة وتقول: أنا لم آتي بهم بسهولة! لو كنت مؤمنًا سترى أن الذي وهبك هو الذي يحفظه لك، الذي أعطاك العطية يحفظها لك، أمَّا أن تبات الليل والنهار وأنت قلق فهذا معناه أنك لا تؤمن أن الوهَّاب هو الحافظ، تتوكَّل على نفسك تتصوَّر أن ربنا أعطاني وعليَّ الحفظ، القلق الشديد من ضعف الإيمان.

النساء يتعبَّدن بعبادة الاستيداع، تعرف التفصيل وتستودعه ولا تستطيع أن تنام! هذا ليس إيمانًا صادقًا بالله إنَّما هذا ضعف في الإيمان وشكًا في قدرته-سبحانه وتعالى-هذه المشاعر لا تسيطر عليكم.

نعمة الزوج، تقوم بعمل برج مراقبة عليه! كل مرَّة تسأله وتبحث في جوَّاله. ثم تقول: لابد أن أحافظ على زوجي! كأنها هي التي ستحافظ على زوجها، منك إلى الله ومن الله إليه ثم منه إليك، أتتصوَّرين أن قلبه ملكك! لو فعلتِ ما فعلتِ ما يملكه إلَّا الله.

ضعف الإيمان أورثنا تصرُّفات واضحة في دلالتها على الضعف وللأسف كل المجتمع موافق عليها.

كل ما وهبك الله من نعم لا تعامل الله معاملة من هو هلع خائف، النعمة التي وُهبت لك الله هو الذي يحفظها، المطلوب منك أن تتعلَّق به وتشكره وتسأله وتقول: أنا على يقين يارب أنك كما وهبتني ستحفظ عليَّ. وإيمانك أنه حفيظ يجعل العطايا لا كدر فيها.

وُصف الإنسان بقوله تعالى: {وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُصَلِّينَ}[1] الخلل أن تستسلم لصفة ولا تجاهدها.

إلَّا المصلين: المصلِّي المؤمن الذي آمن والذي يؤمن يدافع لمثل هذا الهلع لا يستسلم له، ونحن نقول: هذه صفة للمؤمن وليست لغيره، هو الذي يصبر ولا يهلع، الذي ليس معه إيمان يستسلم لصفته الرئيسة التي ابتلي بها.

لما ابتلاك الله بالهلع وأخبرك عن نفسك؛ من أجل أن تجاهد هذا الخوف، والخوف يأتيك من نفسك ومن الشيطان. كلَّما خوَّفك الشيطان حاور نفسك والشيطان، قل: استودعته الرحمن الذي بيده ملكوت كل شيء ولا يؤوده حفظهما وهو العلي

(1) [سورة المعارج: 21، 22]

العظيم، يعني السماوات والأرض ومن فيهنَّ في يمينه-سبحانه وتعالى-كخردلة في يمين أحدكم، أتظنه ليس قادرًا على حفظك وحفظ ما وهب لك؟! الذي وهب هو الذي يحفظ، فالخوف في معاملة عطايا الله دليل نقص الإيمان، وغير الخوف يوجد الطمع.

سؤال من إحدى الحاضرات: كيف يكون الاستيداع؟

قولي: استودعتك الله، وفي قلبك الثقة بالله أنه حافظ، اقرئي في اسم الحافظ الحفيظ، اجعليه يستقرُّ في قلبك، ثم قولي استودعتك الله ويكون إيمانك بأنه هو يحميهم ويرعاهم ويخرجهم من المآزق ويدفع عنهم الشر، كل هذا تؤمنين أنه لو استودعتهم إيَّاه دفع عنهم الشر، ووالله حتى إن لم تستودعيهم يحفظهم، وهذا من تمام رحمة الله بالخلق وهي أعلى من رحمة الوالدين بأولادهم، فإيمانك بصفاته تجعلك تطمئن له-سبحانه وتعالى-.

المخاوف عمومًا لا تكن فيها هلوعًا.

نأتي إلى الطمع هذا الشخص الذي ليس معه إيمان كلَّما جاءته مسار يطمع فيها، يريد أكثر منها، ما يرضى بما قسم الله، وهذا الطمع يكدر عليه النعمة الحالية.

هذا موقف حقيقي: امرأة في الحرم فقدت 500 ريال ووقع في قلبها حزن ثم ذهبت إلى البيت وجدت أحد وهبها بدون لا حول لها ولا قوة ألف ريال وهي عطية الله، انظري كيف ربنا أعطاك والحمد لله ومباشرة جبرك فقالت: لو كانت توجد الـ 500 كان أصبحت 1500!! هذه صورة طمعان، يعني ربنا ردَّ إليك الـ 500 وفوقها أتاكِ 500! لكن الطمع يكدِّر على الإنسان عطايا الله.

فادفع عن نفسك الطغيان يعني الاستغناء.

وادفع عن نفسك الهلع على النعم.

سيباركها الله.

ادفع عن نفسك الطمع، لابد أن تعرف أن الله هو الذي يبارك العطايا، وهو الذي يحفظها لك، وهو الذي أعطاك إيَّاها وحده لا شريك له-سبحانه وتعالى-.

انتهى اللقاء الأول ولله الحمد.

اللقاء الثاني

نقل لكلام الشيخ الذي تم شرحه في هذا اللقاء:

وكل هذا مشاهد بالتجربة، ومثل واحد من هذا النوع، إذا تدبَّرته ونزلته على أحوال الناس، رأيت الفرق العظيم بين المؤمن العامل بمقتضى إيمانه، وبين من لم يكن كذلك، وهو أن الدين يحث غاية الحث على القناعة برزق الله، وبما آتى العباد من فضله وكرمه المتنوِّع.

فالمؤمن إذا ابتلي بمرض أو فقر، أو نحوه من الأعراض التي كل أحد عرضة لها، فإنه–بإيمانه وبما عنده من القناعة والرضى بما قسم الله له–يكون قرير العين، لا يتطلَّب بقلبه أمرًا لم يقدَّر له، ينظر إلى من هو دونه، ولا ينظر إلى من هو فوقه، وربَّما زادت بهجته وسروره وراحته على من هو متحصِّل على جميع المطالب الدنيوية، إذا لم يؤت القناعة.

كما تجد هذا الذي ليس عنده عمل بمقتضى الإيمان، إذا ابتلي بشيء من الفقر، أو فقد بعض المطالب الدنيوية، تجده في غاية التعاسة والشقاء.

ومثل آخر: إذا حدثت أسباب الخوف، وألَّمت بالإنسان المزعجات، تجد صحيح الإيمان ثابت القلب، مطمئن النفس، متمكنًا من تدبيره وتسييره لهذا الأمر الذي دهمه بما في وسعه من فكر وقول وعمل، قد وطَّن نفسه لهذا المُزعج المُلم، وهذه أحوال تريح الإنسان وتثبِّت فؤاده.

كما تجد فاقد الإيمان بعكس هذه الحال إذا وقعت المخاوف انزعج لها ضميره، وتوتَّرت أعصابه، وتشتَّت أفكاره وداخله الخوف والرعب، واجتمع عليه الخوف الخارجي، والقلق الباطني الذي لا يمكن التعبير عن كنهه، وهذا النوع من الناس إن لم يحصل لهم بعض الأسباب الطبيعية التي تحتاج إلى تمرين كثير انهارت قواهم وتوتَّرت أعصابهم، وذلك لفقد الإيمان الذي يحمل على الصبر، خصوصًا في المحال الحرجة، والأحوال المحزنة المزعجة.

فالبر والفاجر، والمؤمن والكافر يشتركان في جلب الشجاعة الاكتسابية، وفي الغريزة التي تلطِّف المخاوف وتهوِّنها، ولكن يتميَّز المؤمن بقوة إيمانه وصبره وتوكُّله على الله واعتماده عليه، واحتسابه لثوابه. أمورًا تزداد بها

شجاعته، وتخفِّف عنه وطأة الخوف، وتهوِّن عليه المصاعب، كما قال تعالى: {إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ}[1]. ويحصل لهم من معونة الله ومعينه الخاص ومدده ما يبعثر المخاوف. وقال تعالى: {وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}[2].

2- ومن الأسباب التي تزيل الهم والغم والقلق: الإحسان إلى الخلق بالقول والفعل، وأنواع المعروف، وكلها خير وإحسان، وبها يدفع الله عن البر والفاجر الهموم والغموم بحسبها، ولكن للمؤمن منها أكمل الحظ والنصيب، ويتميَّز بأن إحسانه صادر عن إخلاص واحتساب لثوابه، فيهوِّن الله عليه بذل المعروف لما يرجوه من الخير، ويدفع عنه المكاره بإخلاصه واحتسابه، قال تعالى: {لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا}[3].

فأخبر تعالى أن هذه الأمور كلها خير ممن صدرت منه. والخير يجلب الخير، ويدفع الشر. وأن المؤمن المحتسب يؤتيه الله أجرًا عظيمًا ومن جملة الأجر العظيم: زوال الهم والغم والأكدار ونحوها.

فصل

3- ومن أسباب دفع القلق الناشئ عن توتُّر الأعصاب، واشتغال القلب ببعض المكدِّرات: الاشتغال بعمل من الأعمال أو علم من العلوم النافعة. فإنها تلهي القلب عن اشتغاله بذلك الأمر الذي أقلقه. وربَّما نسي بسبب ذلك الأسباب التي أوجبت له الهم والغم، ففرحت نفسه، وازداد نشاطه، وهذا السبب أيضًا مشترك بين المؤمن وغيره. ولكن المؤمن يمتاز بإيمانه وإخلاصه واحتسابه في اشتغاله بذلك العلم الذي يتعلَّمه أو يعلِّمه، وبعمل الخير الذي يعمله، إن كان عبادة فهو عبادة، وإن كان شغلًا دنيويًا أو عادةً أصحبها النيَّة الصالحة. وقصد الاستعانة بذلك على طاعة الله، فلذلك أثره الفعَّال في دفع الهم والغموم والأحزان، فكم من إنسان

(1) [سورة النساء: 104]

(2) [سورة الأنفال: 46]

(3) [سورة النساء: 114]

ابتلي بالقلق وملازمة الأكدار، فحلَّت به الأمراض المتنوِّعة، فصار دواؤه الناجع (نسيانه السبب الذي كدَّره وأقلقه، واشتغاله بعمل من مهماته).

وينبغي أن يكون الشغل الذي يشتغل فيه مما تأنس به النفس وتشتاقه، فإن هذا أدعى لحصول هذا المقصود النافع، والله أعلم.

4- ومما يدفع به الهم والقلق: اجتماع الفكر كله على الاهتمام بعمل اليوم الحاضر، وقطعه عن الاهتمام في الوقت المستقبل، وعن الحزن على الوقت الماضي، ولهذا استعاذ النبي-صلى الله عليه وسلم-من الهم والحزن، فلا ينفع الحزن على الأمور الماضية التي لا يمكن ردَّها ولا استدراكها وقد يضر الهم الذي يحدث بسبب الخوف من المستقبل، فعلى العبد أن يكون ابن يومه، يجمع جدَّه واجتهاده في إصلاح يومه ووقته الحاضر، فإن جمع القلب على ذلك يوجب تكميل الأعمال، ويتسلَّى به العبد عن الهم والحزن.

والنبي-صلى الله عليه وسلم-إذا دعا بدعاء أو أرشد أمَّته إلى دعاء فإنما يحث مع الاستعانة بالله والطمع في فضله على الجد والاجتهاد في التحقُّق لحصول ما يدعو بحصوله. والتخلِّي عمَّا كان يدعو لدفعه لأن الدعاء مقارن للعمل، فالعبد يجتهد فيما ينفعه في الدين والدنيا، ويسأل ربه نجاح مقصده. ويستعينه على ذلك، كما قال-صلى الله عليه وسلم-: ((احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإذا أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان))[1]، فجمع-صلى الله عليه وسلم-بين الأمر بالحرص على الأمور النافعة في كل حال. والاستعانة بالله وعدم الانقياد للعجز الذي هو الكسل الضار وبين الاستسلام للأمور الماضية النافذة، ومشاهدة قضاء الله وقدره.

وجعل الأمور قسمين:

قسمًا يمكن العبد السعي في تحصيله أو تحصيل ما يمكن منه، أو دفعه أو تخفيفه فهذا يبدي فيه العبد مجهوده ويستعين بمعبوده.

(1) رواه مسلم في صحيحه، (كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، 2664)

وقسمًا لا يمكن فيه ذلك، فهذا يطمئن له العبد ويرضى ويسلِّم، ولا ريب أن مراعاة هذا الأصل سبب للسرور وزوال الهم والغم.

فصـل

5- ومن أكبر الأسباب لانشراح الصدر وطمأنينته: الإكثار من ذكر الله، فإن لذلك تأثيرًا عجيبًا في انشراح الصدر وطمأنينته، وزوال همِّه وغمه، قال تعالى: {أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}[1]، فلذكر الله أثر عظيم في حصول هذا المطلوب لخاصيته، ولما يرجوه العبد من ثوابه وأجره.

6- وكذلك التحدُّث بنعم الله الظاهرة والباطنة، فإن معرفتها والتحدُّث بها يدفع الله به الهم والغم، ويحث العبد على الشكر الذي هو أرفع المراتب وأعلاها حتى ولو كان العبد في حالة فقر أو مرض أو غيرهما من أنواع البلايا. فإنه إذا قابل بين نعم الله عليه-التي لا يحصى لها عد ولا حساب-وبين ما أصابه من مكروه، لم يكن للمكروه إلى النعم نسبة.

بل المكروه والمصائب إذا ابتلى الله بها العبد، وأدَّى فيها وظيفة الصبر والرِّضى والتسليم، هانت وطأتها، وخفَّت مؤنتها، وكان تأميل العبد لأجرها وثوابها والتعبُّد لله بالقيام بوظيفة الصبر والرضى، يدع الأشياء المرَّة حلوة فتنسيه حلاوةُ أجرها مرارة صبرها.

7- ومن أنفع الأشياء في هذا الموضع استعمال ما أرشد إليه النبي-صلى الله عليه وسلم-في الحديث الصحيح حيث قال: ((انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم))، فإن العبد إذا نصب بين عينيه هذا الملحظ الجليل رآه يفوق جمعًا كثيرًا من الخلق في العافية

(1) [سورة الرعد: 28]

وتوابعها، وفي الرزق وتوابعه مهما بلغت به الحال، فيزول قلقه وهمه وغمه، ويزداد سروره واغتباطه بنعم الله التي فاق فيها غيره ممن هو دونه فيها.

وكلَّما طال تأمُّل العبد بنعم الله الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، رأى ربه قد أعطاه خيرًا ودفع عنه شرورًا متعدِّدة، ولا شك أن هذا يدفع الهموم والغموم، ويوجب الفرح والسرور.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نكمل إن شاء الله ما بدأناه أمس من الكلام حول رسالة الوسائل المفيدة للحياة السعيدة.

أمس بدأنا بأول سبب ذكره الشيخ وهو الإيمان بالله والعمل الصالح، وهو سبب لسعادة الإنسان، لماذا هو سبب لسعادة الإنسان، وما معنى إنسان يؤمن بالله؟

أي يؤمن بأن الله-سبحانه وتعالى-كامل الصفات ويعرف أسماءه وصفاته ويتيقَّن ويؤمن بها، فستكون النتيجة أنه يعظِّم الله ويحبه، فإذا عظَّم الله وأحبَّه قبِل منه كل شيء، فإذا أتته مسرَّات تعامل معها كما يحب الله، وإذا أتاه ما لم يسرُّه تعامل معه كما يحب الله.

إذًا ما هي معاملة الإنسان الذي يؤمن بالله للمسرَّات التي تأتيه؟

ثلاثة أمور:

- يقبل.
- يشكر.
- يستخدمها فيما يرضي الله.

ومعنى يقبل: أي يقبلها كما هي ولا يعيبها، فإذا كنت حقًّا مؤمن بما رزقك إيَّاه مما يسرُّك ما تنظر له إلَّا على أنه يلائمك، ولا تطلب زيادة عليه أو نقصان، ولا تقول: لو كانت كذا كانت أفضل.

وإذا أتاه ما لم يسرُّه يعامله بنوعين:

- الصبر.
- المقاومة.

توجد أمور ممَّا لا تسرُّك يمكن أن تقاومها وتوجد أمور لا يُستعمل معها إلَّا الصبر.

والمقاومة تعني: مقاومة اليأس. وكل شيء إذا نُزع ويمكن أن يعود وبأحسن مما فات أعامله بمقاومة اليأس.

الصبر: كل شيء نُزع وسنَّة الحياة ألَّا يعود أعامله بالصبر.

والذي لا يؤمن ما حاله، وكيف يستقبل النعم؟ بالطمع، والهلع.

أولًا: إذا أتاه ما يحبه يستقبلها بالطمع، ولسانه دائمًا ينتقد النعمة، مثلاً إذا أتته ألف ريال أراد ألفين، وإذا أتاه ولد أراد ولدين، وهكذا دائمًا طمعان لا يرضى بما قسم له.

ثانيًا: يكون دائمًا هلع، والهلع درجة أعلى من الخوف وكأن قلبه نُزع من مكانه! ويكون هلع على النعمة التي رزقه الله إيَّاها؛ لأنه نسي المقدمة وهي أن الله-عزَّ وجلَّ-هو الذي وهب وهو الذي يحفظ، أتظن أنك أنت الذي أتيت بهذه النعمة؟! اسأل الله الذي وهبك أن يحفظها لك.

لذلك ليس من الطبيعي القلق على النعم، هذا يخالف ثقة الإنسان بربه، فإذا وجدت نفسك لا تنسب النعم لله اقرأ عن اسمه الوهاب والمنان والرزاق وغيرها، وإذا نسيت بأن الله-عزَّ وجلَّ-هو الذي يحفظ اقرأ عن اسم الحفيظ الحافظ والوكيل والولي، وكل هذه الأسماء تنفعك لكي يستقيم اعتقادك في ربك، ولا تنسى أبدًا ما وصف الله في سورة الفجر، قال تعالى: {فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ}.

قال تعالى:

{كَلاَّ} لا هذا العطاء كرامة ولا المنع كرامة، ولو كان العطاء كرامة ما سقا الله الكافر شربة ماء، لكن هذا ابتلاء وهذا ابتلاء، وكلا الأمرين اختبار، والذي ينجح هو الذي يصبر ويشكر.

يقول الشيخ في آخر هذا السبب:

"وكل هذا مشاهد بالتجربة"

أي الإنسان المؤمن إذا حصل له أمر قبِل وشكر واستعملها فيما يُرضى الله وانتفع، وإذا كان غير مؤمن حصل له الهلع والخوف.

والسبب الثاني من أسباب السعادة هو:

"2-ومن الأسباب التي تزيل الهم والغم والقلق: الإحسان إلى الخلق بالقول والفعل، وأنواع المعروف، وكلها خير وإحسان، وبها يدفع الله عن البر والفاجر الهموم والغموم بحسبها، ولكن للمؤمن منها أكمل الحظ والنصيب، ويتميز بأن إحسانه صادر عن إخلاص واحتساب لثوابه"

إذا كان الإنسان مغموم أو يريد أن يكون سعيدًا يعلم أن من أسباب سعادته بأن يحسن، واعلم أن الإحسان إلى الخلق ينفع البر والفاجر، والمحتسب وغير المحتسب، ولكنه ينفع المحتسب أكثر من غير المحتسب، ومعنى احتساب الإنسان: أي وقت إحسانه للخلق يريد أن يحبه الله، قال تعالى: {وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[1]

تحتسب الإحسان على الله، تمد يدك للإحسان إلى الناس تقول في قلبك: ها أنا أتقرَّب إليك أود أن تحبني؛ لأني أعلم أنك تحب المحسنين. إذًا الإحسان ينفع المؤمن والفاجر لكنه ينفع المؤمن أكثر من غيره لأنه يحتسب.

إذًا الاحتساب حديث بينك وبين نفسك لحظة العطاء عند البدء بالعطاء إلى أن تمد يدك وتعطي الناس، حديث تقوله في نفسك وتدفع أي حديث غير هذا من قلبك، فتقول: أنا أعلم أن الله يحب المحسنين، وها أنا يا ربنا أُحسن وأُحب أن تحبني فلذلك أحسنت.

فإذا وقع في قلب الإنسان حب الله كان جزاؤه حب الله له، فما علاقة حب الله للعبد والسعادة بأن كلما أحبك الله أتتك السعادة، والدليل أن الإحسان إلى الخلق بالقول والفعل وأنواع المعروف سبب للسعادة {وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}

فما علاقة الحب بالسعادة؟ علاقة منطقية، إذا أحبك الله كان وليُّك، ومن كان وليُّه الله شرح صدره ويسَّر أمره وسدَّده ووفَّقه وأنار له طريقه، قال تعالى: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ}[2]

إذًا الإحسان ينفع في كل حال ولكن ينفع المؤمن أكثر من غيره؛ لأن المؤمن يريد بإحسانه أن يحبه الله، يحتسب على الله، بمعني أنه وقتما يبدأ في العمل يكلِّم نفسه: إني لا أريد إلَّا هذا الأمر. وأعلم أن كل صاحب دعوة يُختبر في دعواه.

ولكن هناك مشكلة أخرى. مثلًا يقول: أنا أريد أن أحسن لكي يحبني الله وإذا أحبني أتاني كل الخير وأقول لربنا: أنا يا رب أحسنت من أجلك، أول ما تقول هذا الكلام لابد أن تعلم أن وراءه اختبار {الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ}[1].

(1) [سورة البقرة: 195]

(2) [سورة الأنعام: 122]

ونضرب مثال على ذلك: يوجد لديكِ خادمة ويوم ما ذكرت لك شيء من أحوال بلدها، أشفقتِ عليها، وأحببتِ أن تحسني إليها وأردتِ من هذا الإحسان أن يحبك الله فأعطيتيها، ثم بعد قليل كسرت لكِ شيء مهم وذلك نتيجة إهمالها، ما هي مشاعرك الآن وما الذي وقع في قلبك؟!

الناس مختلفين. قسم مؤمن بالله وأقدراه وتقول: خيرًا. وقسم يقع في قلوبهم: أهذا جزاء المعروف! وهذا القسم لا يعرفون أن تفسير الشيء الذي كسر اختبار لإحسانك، هل أنت تحسن من أجله-سبحانه وتعالى-أم تحسن من أجل الناس وتنتظر منهم هم أن يعطونك خيرًا.

قال:

"فيهون الله عليه بذل المعروف لما يرجوه من الخير، ويدفع عنه المكاره بإخلاصه واحتسابه، قال تعالى: {لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [2]"

لكي ينفعك لابد أن يكون ابتغاء ومرضات الله، فالشرط مهم، وقلنا إن الإحسان إلى الخلق ينفع البر والفاجر، والمحتسب وغير المحتسب، لكن دائمًا دائرة السعة التي يحسن فيها الإنسان غير المحتسب تكون بسيطة، في مقابل لما يحسن لوجه الله تكون واسعة، ويكفي في ذلك أن الله-عزَّ وجلَّ-قال في ذلك: {نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} ووصف الأجر أنه عظيم. ويكفي أنه قال: {وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}.

إذًا لا يغرَّك أن كل الناس مؤمنهم وفاجرهم يعملون الإحسان وينتفعون به، اعلم أن الإحسان ينفع المؤمن نفعًا حقيقيًا وطويل المدى.

ما وجه انتفاع المؤمن في حياته وقلبه من الإحسان؟

من آمن بالله يهوّن الله عليه بذل المعروف ويشرح صدره لبذل المعروف، لماذا؟ لأن كل من آمن بالله، وعلم أن الله مطّلع على ما قام في قلبه، وعلم أن الله يحب هذا العمل، وعلم أن الله قال في الحديث القدسي: ((...وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً))[3] فيضع الريال يقول: أتقرَّب إليك شبرًا، وهو على يقين أن

(1) [سورة العنكبوت: 1-2]
(2) [سورة النساء: 114]
(3) رواه مسلم في صحيحه، (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله، 2675)

الله سيتقرَّب إليه ذراعًا، وهذا المؤمن يعلم أنه لو أحسن عامله الله باسمه الشكور، فيعمل العبد العمل القليل يعطيه الله الأجر الكثير، لماذا؟ لأن الله من أسمائه الشكور، يعطي على العمل القليل الأجر الكثير.

ومن الأُجور التي تترتَّب على الإحسان وتورثك انشراح الصدر: أن الله-عزَّ وجلَّ-ييسِّر عليك العمل الصالح والعفو والإحسان والبذل، انظر إلى هذه الدائرة عندما تبدأ تحسن من أجل الله وأنت تعلم أن من تقرَّب إلى الله شبرًا تقرب الله إليه ذراعًا، يتقرَّب الله إليك ذراعًا ييسِّر لك الأمر، ويشرح صدرك نتيجة العطاء، ويجعلك دائم العطاء، كل هذا من آثار شكره-سبحانه وتعالى-.

لا تنسَ يا أيها المؤمن أن الإحسان إلى الخلق يأتي بعد الإحسان في عبادة الرب مباشرة، عنوان سعادة العبد الإحسان في عبادة الرب والإحسان إلى الخلق، وهذه علَّة اجتماع الأمر بالصلاة والأمر بالزكاة في مواطن كثيرة في كتاب الله، منها وصف الله-عزَّ وجلَّ-المؤمنين بوصفين، قال: {وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ}[1]

الاقتران دليل على أن السعادة مبناها وركيزتها أمرين:

1. الإحسان في عبادة الله.
2. الإحسان في معاملة الخلق.

وكلَّما أحسنت وأنت تريد وجه الله كلَّما يسَّر الله-عزَّ وجلَّ-عليك سبل الإحسان.

قال:

" فأخبر تعالى أن هذه الأمور كلها خير ممن صدرت منه. والخير يجلب الخير، ويدفع الشر. وأن المؤمن المحتسب يؤتيه الله أجرًا عظيمًا"

نتيجة أمره بالمعروف، وأمره بالصدقة، وإصلاحه بين الناس.

قال:

(1) [سورة المائدة: 55]

" ومن جملة الأجر العظيم: زوال الهم والغم والأكدار ونحوها."

إذًا حين تحسن إلى الناس ما الذي يكون في قلبك، وماذا تعتقد أن يأتي بعده وما هو مقصدك؟ حب الله، ثم إنك تعلم لو أحبك الله طابت لك الدنيا، لابد أن ننتبه أن هناك طريقان:

1. طريق أن يحسن إلى الخلق ومقصده مباشرةً أن ينشرح صدره.
2. وطريق أن يحسن إلى الخلق لكي يحبه الله فإذا أحبه الله كان من الآثار أن يشرح صدره.

والطريق المستقيم واضح في قوله تعالى: {لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا}.

ومن الأُجور العظيمة زوال الهم والغم، يجب أن يكون أمام أعيننا حب الله قبل زوال الهم، فإذا وقعت المحبَّة طابت الدنيا، ومن طيب الدنيا أن ينشرح صدر الإنسان.

السبب الثالث من أسباب السعادة:

قال:

"3-ومن أسباب دفع القلق الناشئ عن توتر الأعصاب، واشتغال القلب ببعض المكدرات: الاشتغال بعمل من الأعمال أو علم من العلوم النافعة."

لو لديك أمر في حياتك يسبِّب لك القلق والتوتُّر وكثرة التفكير، وكل وقت تفكِّر من أين سيبتدئ ومن أين سينتهي وما الذي سيحصل فيه...! الذي يساعدك لدفع التوتُّر أن تشتغل في علم أو عمل نافع، أول ما يجول في خاطرك ما يوتِّرك وبدأت تحسب حسابات لو حصل كذا ماذا سيحصل ولو حصل كذا ماذا سيحصل، مباشرةً اشتغل بعلم أو عمل نافع، والذي سيحصل في قلبك أنك ستقوى على الشيطان، فهو الذي يذكرك بما يوترك، فقاومه بالعمل.

أشغل قلبك بحاضر جيد ولا تشغله بصفحات الماضي، والحاضر إمَّا علم أو عمل.

قال:

" فإنها تلهي القلب عن اشتغاله بذلك الأمر الذي أقلقه"

نفسك إن لم تشغلها بالحق وما ينفعك شغلتك بالباطل وبما لا ينفعك.

قال:

" وربما نسي بسبب ذلك الأسباب التي أوجبت له الهم والغم، ففرحت نفسه، وازداد نشاطه، وهذا السبب أيضًا مشترك بين المؤمن وغيره. ولكن المؤمن يمتاز بإيمانه وإخلاصه واحتسابه في اشتغاله بذلك العلم الذي يتعلمه أو يعلمه، وبعمل الخير الذي يعمله، إن كان عبادة فهو عبادة، وإن كان شغلًا دنيويًا أو عادةً أصحبها النية الصالحة. وقصد الاستعانة بذلك على طاعة الله، فلذلك أثره الفعال في دفع الهم والغموم والأحزان، فكم من إنسان ابتلي بالقلق وملازمة الأكدار، فحلت به الأمراض المتنوعة"

كالأمراض الجسمية، فعندما حلَّت الهموم في قلبه أصابت الأمراض بدنه لأن بدنه تابع لقلبه. قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: ((ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب))[1]

1. صلح الجسد من جهة عمله الصالح.
2. صلح الجسد من جهة صحته.

إذا صلح قلبك تأتي الصحة في بدنك، فمن صلح قلبه استعان بالله أكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فلابد أن يتبع صلاح قلبه صلاح بدنه.

قال:

" فصار دواؤه الناجح (نسيانه السبب الذي كدره وأقلقه، واشتغاله بعمل من مهماته)."

فالجسد يمرض بعد إصابة القلب بالهموم، وهذه حقيقة لا يمكن إنكارها، انظري مثلًا عندما يصيبك الهم، حتى يديكِ لا تستطيعين أن ترفعيها وتكوني على فراشك لا تستطيعين أن تتحرَّكي، وإذا كنتِ شديدة الغم وتغفو عينكِ

(1) رواه البخاري في صحيحه، (كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، 52)

وتفتحينها تكرهين أنك فتحتيها من جديد، بل قد يصل الإنسان إلى حد الاكتئاب! إذًا ماهي الأسباب التي تدفع عنك؟

الاشتغال بعمل أو علم نافع، وهذه الأسباب تنفع كل الناس كما قال الشيخ؛ لأن الانشغال بالعلم أو بالعمل يسبِّب نسيان همومهم التي في قلوبهم، فإذا وقع النسيان زال جزء كبير من الهم، هذا بالنسبة للأمر المشترك بين المؤمن وغير المؤمن.

وبالنسبة للمؤمن الأمر أعلى من ذلك، فعندما يذهب يتعلم مثلًا القرآن أو السنَّة، ما الذي سيحصل له؟ سيجلس مجلسًا تحيط به الملائكة، يذكره الله فيمن عنده، ويكون أشغل قلبه بغير همِّه، والأمر الآخر الأهم: أنه سيُذكر عند رب السماء! فيثني عليه- سبحانه وتعالى-فيقع عليه الانشراح، هذا لو كان اشتغل بأمر ديني. وإذا اشتغل بأمر دنيوي أيضًا لا بأس عليه، ويستعين به على طاعة الله ويحتسب الأجر.

إذًا المطلوب منك عندما تدخل في حال الهم والغم والاكتئاب: ألَّا تستسلم، اشتغل بعمل من الأعمال النافعة أو علم، ونحن نقول لك: ابتدئ بالاشتغال بالعلم الشرعي اليسير، أُدخل إلى علوم الشريعة وأنت تريد أن يطيب قلبك؛ لأن مما يطيِّب القلوب ويصلحها وينسيها الهموم ذكر الله، وذكره يكون بقراءة القرآن والعلوم النافعة، وإذا لم يتيسَّر لك ذلك اشتغل بأمور الدنيا واحتسبه على الله، وتقول لنفسك: أنا أتعلَّم لكي أنفع المسلمين وأنفع نفسي.

قال:

" وينبغي أن يكون الشغل الذي يشتغل فيه مما تأنس به النفس وتشتاقه، فإن هذا أدعى لحصول هذا المقصود النافع. والله أعلم."

بمعنى أنك لا تذهب وتبحث عن عمل يجلب لك الاكتئاب، ابحث عن عمل يشرح صدرك، مثلًا أنتِ الآن في المنزل وأولادك تأخَّروا عليكِ، وبدأ الشيطان يصف لكِ وصفًا دقيقًا بالذي يمكن أن يحصل، وفي أي شارع وخصوصًا لو كانوا يمرُّون على شارع ممتلئ بالحوادث. وتأتي من ذاكرتكِ بعض الحوادث التي رأيتِها وفي عشر دقائق تكادين أن تنهاري! وأنتِ الآن مطلوب منكِ أن تطبخي لهم وأنتِ مائلة للمطبخ وعندما تدخلين في الطبخ تنسين نفسك، إذًا اتركي الانشغال واتركي الهاتف واتركي التفاصيل التي لا تجلب إلَّا التوتُّر، تخيَّلي أنه قد يكون والدهم ترك الهاتف في السيارة أو وضعه على الصامت وتتصلين ولا يرد عليك وتنتظرين ربع ساعة فتزيدين توترًا، وهذه الربع ساعة اختبارًا لكِ؛ لذا لا تستسلمي للشيطان، استودعيهم الرحمن واسألي الله أن يلطف بهم واذهبي إلى عملكِ الذي يلهيك والتهي به، لا تتركي نفسك ولا تقولي: أنا لا أستطيع أن أكون هادئة؛ فكثير من الناس يرون أن

القلق دليل على الحرارة وحياة القلب، وهذا باطل وهو من وحي الشيطان. وكل توتُّر وحزن وهمٌّ على أمر ماضي وأمر آتي هو من وحي الشيطان، أمَّا ما مضى فقد انقضى لا يد لك فيه، وأمَّا ما هو آتي فهو في الغيب عند الله، فإذا كنت مؤمن بالله، قوِّي نفسك على الشيطان بانشغالك بعمل، وهذا يكون على الهمِّ الذي يشغلك لوقت طويل والهم الذي يشغلك في ربع ساعة.

فعند ذهابك إلى فراشك يكون وقت عصيب وبالذات إن لم يكن يغلبك النعاس فالشيطان يقلقك حتى أنك تنام غير ذاكر لربك.

فالشيطان يصطاد الناس على جزئين:

1. جزء ينوِّمه بدون أن يقول الأذكار، ويُشعره أنه سيستغرق وقت لقراءة آية الكرسي كأنه سيقرأ البقرة كلها! ويجعل والمعوذات والنفث على الجسد كأنه سيقوم الليل كله!

2. وجزء يذكِّره بما يوتِّره ويجعل قلبه يغلي، ويدخل إلى عالم من الاكتئاب والحزن ولا يتركه حتى يبكي، وقد يكون على ما مضى أو الذي في حكم الغيب، وهذا من تلاعب الشيطان بنفوس المؤمنين.

أمَّا المؤمن لا يحزن على الماضي، وأمَّا الآتي يوكِّل أمره إلى الله-عزَّ وجلَّ-، ولذلك من صفات السبعين ألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب كما قال النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-: ((وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ))[1].

الصفة التي قبلها: ((لا يَتَطَيَّرُونَ)) ومعناها: لا يتشاءمون، مثلًا يأتي أحدهم في موقف ما ويقول: أظن أن القضية ستفشل ويقول: أيضا أظن أني لست نافع في هذا الأمور وأظن أن الرجل لن يبقى وأظن أن الأولاد لن يصلحوا. ومن أخبرك بذلك إنما ذلك من آثار التشاؤم، وكلَّما زدت تفاؤلًا بالله وثقةً، قرَّبك من ظنك، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ((أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ))[2].

الحساسية مرض يصاب به الإنسان يُهلك قلبه، كما أن حساسية البدن تُهلك الجلد، تجعلهم يحكُّون جسدهم حتى يخرج الدم! والحسَّاس من أي كلمة يسمعها وتسبب له الغم كأنه يحك في قلبه حتى يمزِّقه! فالحساسية ليست صفة مدح بل إنها مرض يسبِّب سوء الظن بالله.

إذًا الذي زاد هموم الناس عدم فعاليتهم في شيء لا في علم ولا عمل، أنت فقط لو فتحت إذاعة القرآن عندنا وركَّزت فيها ستحصِّل من العلوم ما لا تتصوَّره، تصوَّر إذا أتى من البرامج ما يناسبك ومهما كنت مهمومًا سيذهب قلبك مع البرنامج ولو خمس دقائق وستركِّز، وبمثله كلَّما أتى علم نافع سيأخذ قلبك ويجذبك، وأحيانًا تكون هذه الهموم مفتاح خير كثير إلى الإنسان

(1) رواه البخاري في صحيحه، (كتاب الطب، باب من اكتوى أو كوى غيره، وفضل من لم يكتو، 5705)

(2) رواه أحمد، تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح.

فيتحوَّل منها إلى الاستقامة. فكم من شخص دخل مدارس التحفيظ ودخل إلى العلم الشرعي بسبب أي أزمة، فرأى أن الأزمة كانت باب خير عظيم عليه وأراد الله أن يصل إلى هذا الحال.

قال:

"4-ومما يدفع به الهم والقلق: اجتماع الفكر كله على الاهتمام بعمل اليوم الحاضر، وقطعه عن الاهتمام في الوقت المستقبل، وعن الحزن على الوقت الماضي، ولهذا استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم من الهم والحزن في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم

فالحزن على الأمور الماضية التي لا يمكن ردها ولا استدراكها، وقد يضر الهم الذي يحدث بسبب الخوف من المستقبل."

إذًا لدينا مشكلتين تسبِّبا عدم السعادة:

1. الهم على المستقبل.
2. الحزن على الماضي.

قال:

" فيكون العبد ابن يومه، يجمع جده واجتهاده في إصلاح يومه ووقته الحاضر، فإن جمع القلب على ذلك يوجب تكميل الأعمال، ويتسلى به العبد عن الهم والحزن."

من أسباب السعادة أن تجمع قوَّتك وفكرك على يومك وحاضرك، فلا تنظر إلى أولادك كل يوم وتقول: أين سيكون مستقبلكم وأين ستجدون وظائف! هذه أمور قضاها الله، فماذا يقال لك؟ كن ابن يومك، وفي هذا اليوم الذي يجب عليك أن تفعله اهتمّ به، لا تقل: أنا أخاف من غدٍ وأخاف أن يحصل كذا. بل ابذل جهدك في يومك فإن أصلحت ما تحت يدك أصلح الله لك مستقبل الأمر، وهذه من حيل الشيطان.

مثلا أنت الآن تصلِّي العشاء وأنت ممن فتح الله لهم في قيام الليل، وتفكِّر وأنت في الصلاة أنك لن تقوم الليل لأنك مريض، يدخل عليك هم وأنت في شغل عنه الآن! وأنتم تعلمون أن الإحسان في الفريضة أولى من الإحسان في النافلة. فيأتي يضيِّع عليك الفريضة بالاهتمام بالنافلة، يقال لك: {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا}[1].

أنت الآن لا تهتم إلَّا في دائرتك من الأعمال، والمطلوب منك أنجزه فيُصلح الله لك المطلوب منك في وقت ثاني، تعامل مع الأقدار الواقعة، ولا تتعامل مع ما مضى ومع ما لا تدرك وقوعه، وهذا كله من الإيمان بالغيب ومن الإيمان بالقضاء والقدر، قال تعالى: {لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ}[2] يعني تكون متَّزن المشاعر، لا عندك حزن على ما مضى ولا أنت لاهثًا على ما هو آت، والذي سيحصل لك إذا لم يأت على ما تريد تتحطَّم! فكن ابن يوم.

ودائمًا يأتي سؤال هل التخطيط للمستقبل ضدّ هذا الأمر أم معه؟

نقول: إذا كانت هناك عوامل التخطيط للمستقبل فمثلًا معك مال وتريد أن تتَّخذ قرار شراء، فهذا في الواقع، ولكن إذا لم يكن معك مال وتفكر ليل ونهار كيف تشتري بيت في كذا وكذا والعوامل الرئيسة ليست بين يدك، فكأنك تضرب في الخيال، فالتخطيط يكون لما تكون الأدوات والإمكانيات متاحة وبين يدك هنا يقال لك: خطِّط، ووقتما تخطِّط لا تضرب في الخيال بل في شيء من الواقع.

ولذلك حين يأتوني أبناء ويقتربون من سن الدراسة أبدأ أخطِّط لهم أين يدرسون، ولكن إن لم يكن لدي أبناء وأبقى أفكر أن مدارس الأولاد فيها مشاكل وإذا جاء الأولاد لا أعرف ماذا أفعل...! فنحن نشوي أنفسنا ونحن بعيد عن المسألة، نحن ننتقل من الواقع إلى شيء غائب ولا علاقة لنا به.

إذًا من أسباب السعادة وزوال الهم والغم: اجتماع الفكر على عمل اليوم الحاضر الذي أنت فيه، وقطع الاهتمام عن المستقبل وعدم الحزن على الماضي، فهذا سيورثك تكميل الأعمال، العمل الذي بين يديك لا تقطعه بالاهتمام بعمل مستقبلي ولا بالتفكير فيه، فاحرص أن يتم لك عملك الحاضر، وكثير من الناس يدخلون في الضلالات والأوهام ودائرة التمنِّي، مثلًا هو الآن يذاكر للاختبارات المفروض أن يركِّز في مذاكرته، لكنه يبدأ يخطِّط لو أنا أخذت معدَّل كذا ماذا أفعل! وهذا كله ضلالات يُضل عقله، ويكون غالبًا هذا من عدم تدريبه على التفكير السليم، لابد أن ندرِّب أنفسنا وأبناءنا على التفكير السليم.

(1) [سورة النساء: 66]

(2) [سورة الحديد: 23]

مثلًا يكون معكِ طفل صغير وأنتِ تدربينه على عمل ما ويبدأ يضع لك اقتراحات وافتراضات خيالية، فماذا تفعلين به؟ رديه إلى الواقع، وقولي له: هذا غير ملائم فكِّر بالذي بين يديك، لكيلا يصبح تائه في حياته.

قال:

" والنبي-صلى الله عليه وسلم-إذا دعا بدعاء أو أرشد أمته إلى دعاء"

حين يأمرنا بالدعاء بأي شيء نريده لا يقول لنا: ادعوا وابقوا في مكانكم.

قال:

" فإنما يحث مع الاستعانة بالله والطمع في فضله على الجد والاجتهاد في التحقق لحصول ما يدعو بحصوله. والتخلي عما كان يدعو لدفعه لأن الدعاء مقارن للعمل، فالعبد يجتهد فيما ينفعه في الدين والدنيا، ويسأل ربه نجاح مقصده. ويستعينه على ذلك، كما قال-صلى الله عليه وسلم-: ((احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإذا أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان))، فجمع صلى الله عليه وسلم بين الأمر بالحرص على الأمور النافعة في كل حال. والاستعانة بالله وعدم الانقياد للعجز الذي هو الكسل الضار وبين الاستسلام للأمور الماضية النافذة، ومشاهدة قضاء الله وقدره."

اجمع بين أربعة أمور:

1. الدعاء.
2. الاستعانة.
3. عمل القلب.
4. عمل الجوارح.

النبي-صلى الله عليه وسلم-أرشدنا أن وسليتنا لتحقيق مرادنا هو دعاء الله والاستعانة به والعمل.

لنرى كيف يكون لذلك زوال الهمِّ والغمِّ...تصوَّر أن لك صحبة غير صالحة تأمرك بالمنكر، وكلَّما تقدَّمت خطوة للمعروف ردَّتك عشر خطوات للمنكر، وهذه الصحبة وراءها مصالح وهذه الصحبة تنفعك في الدنيا ولكن في دينك تردُّك، وذهبت إلى الحرم وطفت وسعيت ثم ذهبت إلى موطن الدعاء المستجاب وقلت: يا رب خلِّصني من هذه الصحبة السيئة التي إذا نفعتني في الدنيا لم تنفعني في الآخرة. يقال لك: قد خطوت الخطوة الأولى، بقي عليك العمل.

والعمل هو عمل القلب وعمل البدن لكي تتخلَّص منهم، أمَّا عمل القلب فكراهيتهم في الله، وكراهيتهم تعني أنك لا تأتي لهذه الصحبة وهي تردُّك عن الله ولا تقل: إنهم ذهبوا بي واشتروا لي ونفعوني في الدنيا. فالأكيد أنك سترجع للوراء وتتَّصل بهم، لو أنت صادق في كونهم صحبة تفسد عليك دينك، وأنت صحيح لا تريد إلَّا وجه الله، وتبيع الدنيا وتشتري دينك وتريد رضاه، يقال لك: ما يكفيك الدعاء فالدعاء أول وسيلة وخطوة، لابد بعد الدعاء من عمل القلب وعمل الجوارح.

وأمَّا عمل الجوارح فالابتعاد عنهم ومقاطعتهم، ولا تذهب إليهم وتتودَّد لهم وتقول: أنا أريدكم وأريد أن أبقى معكم ولكن لا أريد كذا وكذا. اعلم أن هذا هو حالهم.

افعل ما تستطيع وأنت صادق، تحرَّك بمقدار شبر يحرِّك الله منهم ذراعًا، المهم لابد أن يرى الله منك بغضًا، مقاطعة وكراهية قلبية، فلا أحد يستطيع أن يحكم قلبك، لكن أنت كلَّما تذكَّرتهم تقول: كيف أتركهم وهم خدموني وفعلوا لي. إنك لو دعوت ما دعوت في قيامك الليل وفي أوقات إجابة الدعاء، وأنت لم تستعين بالله ولم تُظهر لله صدقًا، ما ينفعك هذا الأمر.

فجمع-صلى الله عليه وسلم-بين الأمر بالحرص على الأمور النافعة في كل حال، يعني مما يدفع منك الغم أن تحرص على الأمور النافعة، وأنت تستعين بالله على القيام بها ولا تكن عاجزًا، ابذل جهودك في المقاومة وأنت مستعين.

العجز هو الكسل، شخص ليس لديه رغبة أن يتحرَّك.

اجمع همك على الوقت الحالي، ولا تشتِّت فكرك في المستقبل ولا في الماضي، وفي الوقت الحالي وأنت تجمع همَّك على العمل اجمع بين ثلاث صفات، ثم إذا فعلت الثلاثة (دعوت واستعنت وعملت) واستفرغت جهدك في القيام بأي عمل ووقع خلاف ما نريد، تقول: قدر الله وما شاء فعل، هنا يأتي استسلامك للقضاء والقدر.

قال:

" وجعل الأمور قسمين:

قسمًا يمكن العبد السعي في تحصيله أو تحصيل ما يمكن منه، أو دفعه أو تخفيفه فهذا يبدي فيه العبد مجهوده ويستعين بمعبوده.

وقسمًا لا يمكن فيه ذلك، فهذا يطمئن له العبد ويرضى ويسلم، ولا ريب أن مراعاة هذا الأصل سبب للسرور وزوال الهم والغم.

5- ومن أكبر الأسباب لانشراح الصدر وطمأنينته: الإكثار من ذكر الله، فإن لذلك تأثيرًا عجيبًا في انشراح الصدر وطمأنينته، وزوال همه وغمه، قال تعالى: {أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}، فلذكر الله أثر عظيم في حصول هذا المطلوب لخاصيته، ولما يرجوه العبد من ثوابه وأجره.

هنا ثلاثة أمور:

أول أمر ما هو ذكر الله؟ هو التسبيح والتهليل وقراءة القرآن، وتدخل العبادات كلها في ذكر الله لمن استحضر النيَّة، فالصائم الجامع لقلبه طول وقته على الله هو ذاكر لله، والذي يسبِّح وقلبه يتلفَّت يمين ويسار هذا ليس ذاكرًا لله، لابد أن تعلم أن أصل الذكر عمل القلب، أن يبقى الله-عزَّ وجلَّ-على بالك أكثر وقت ممكن وهو قبلة قلبك، تكون بذلك ذاكرًا لله.

وللذكر مراتب:

1. ذكر بالقلب والجوارح كالصوم والصلاة والصدقة وقراءة والقرآن وتسبيح وأنت جامع قلبك، وهذه أعلى مرتبه.
2. ذكر بالقلب دون الجوارح، هذه المرتبة الثانية.
3. ذكر باللسان دون القلب، وهذه أدناه وإن كانت ذكرًا، ولكن أدناه من جهة الأجر والأثر على القلب.

من الذي يستطيع أن يذكر جامع قلبه ولسانه؟ من عرف الله، وتجدَّدت معرفته، يعني مثلًا سمعت معنى اسم الله (الحميد والعظيم) وتتصوَّر أنه سيبقى أثره عليك، لابد أن تعرف الله ويبقى هذا العلم من العلوم الظاهرة والمتجدِّدة أمام عينيك طوال الوقت وترى آثارها طوال الوقت.

الذاكر على الحقيقة يعرف الله حق المعرفة ويرى آثار كمال أسمائه وصفاته-سبحانه وتعالى-على حياته، الذاكر لله-عزَّ وجلَّ- يقول: هنا أرى آثار مغفرته وحلمه وغناه وسمعه وبصره. فهذا الذاكر لربِّه الذي يعرفه ويرى آثار أفعاله وأسمائه، ويقول: هنا عاملني بكرمه ولطف بي ولطف لي وهداني إلى الصراط المستقيم.

مثلًا تضيق بك الدنيا ويأتيك قرار لابد أن تتَّخذه خلال ثانية-نسأل الله أن يحفظنا ويحفظ جميع المسلمين-مثلًا يشتعل حريق في بيت، ومن أجل إطفاء الحريق تحتاج أنك تقفل مصدر الكهرباء، وفي لحظة الأزمة أنت لا تهتدي إلى أي شيء، إلَّا أن الله يتغمدَّك برحمته ويعاملك بلطفه ويهديك إلى التصرُّف السليم الذي به تنجو، فتقول: هنا عاملني الله بلطفه وهدايته وبرحمته ورزقه وعطائه. الذاكر لله يرى آثار كمال أسماء الله وصفاته وأفعاله في كل حياته، يفسِّر حياته على ما يعرف من أسماء الله وصفاته، ولذلك كلَّما زادت معرفتك لله، استطعت أن تفسِّر الحياة وما تضيق.

ولذلك يطيب القلب وينشرح الصدر حين تعرف من هو الله، حين تكثر من ذكره وحين ترى آثار كمال صفاته-سبحانه وتعالى- في كل شيء.

إذًا الذاكر يعرف الله وهذه مسألة مهمة، ثم هاجمه سوء الظن بالله والخوف من المستقبل أو الخوف على شيء، سبَّح الله فطرد هذا الظن السيء؛ لأنَّ من يسبِّح الله يقول بلسان حاله: أنا على يقين أنه كامل الصفات، أُبعد عنه-سبحانه وتعالى-كل خاطرة سوء ظنٍّ.

فالتسبيح مِن سبح، وسبح مِن السباحة، والسباحة معناها البُعد، فالذي يقول: (سبحان الله) يبعد عن قلبه أي خاطرة فيها نقص عن صفات الله، بل يعتقد يقينًا أنّ الله-سبحانه وتعالى-له كمال الصفات ولذلك نقول: سبحان الله وبحمده. يعني أنا على يقين أنَّه كامل الصفات وأنَّ آثار كماله أراها في حياتي، فمسألة الذكر لابد أن تأخذ حقَّها في الفهم لأن كثير من الناس نقول لهم: {أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} يقول: أنا جلست ساعة أسبِّح وأستغفر ولا أجد أثرًا! نقول: لا تظنّ أنَّ المقصود الذكر باللسان فقط-وإن كان الذكر باللسان، فاصبر عليه وستأتيك النتيجة-وإنَّما متى يكون هذا الذكر سريع وفعَّال؟ لمَّا يعرف القلب الله ويرى كل الحياة من منظار معرفته الله، يفسِّر كل الذي يمرُّ عليه من جهة أن الذي قدَّره عليه كامل الصفات، الذي أجرى عليك جميع الأقدار موصوف بكمال الصفات، فإذا كان الله الموصوف بكمال الصفات أعطاك أو أخذ منك، فعطاؤه لحكمة وأخذه لحكمة.

إذًا كيف ينفعنا الذكر؟

تعرَّف إلى الله (أسماءه وصفاته-سبحانه وتعالى-) وجدِّد المعرفة به.

فتكون النتيجة أن عينيك ترى كل شيء حولك بهذه المعرفة، فلمَّا تتذكَّر الله وتتذكَّر كمال صفاته، يذهب اللون الأسود الذي صُبغت به الحياة أو اللحظة التي صبغتها بأنها ضيق، وستنفرج بحسن ظنك بالله.

مثلًا أنتِ واقفة تنتظرين السائق وتأخَّر عليك، وبالتقدير العقلي يقال: هذا ضيق وهذه مشكلة، فإذا فزعتِ إلى الله وذكرته أولًا وذكرتِ حكمته ولطفه، مباشرةً تشعرين أن هذا الموقف لابد وراءه خير، وأول ما تضاء لكِ هذه الإضاءة مباشرةً، ينعم الله عليكِ ويأتي الخير. لكن إذا بقيت هذه النقطة ظلمة، فهذا لأنك لم تذكري الله.

ليس المطلوب منك أول ما تحصل الأحداث مباشرة أن تكون مثالي وكل مرة تجد نفسك تقول: هذا خير. فنحن بشر فينا الضعف والنسيان، فكلما زاد إيماننا نجحنا أكثر وكلما نقص الإيمان كنا ضعيفين في النجاح.

فمثلًا لو كنت متوسطة الإيمان ودخلت في موقف تأخر السائق عليك أول لحظة تشعر بضيق في القلب، ما الذي يوسِّعه ويكشفه؟ ذكر الله. أول ما تذكر الله، تذكر أنه يصرِّف الأمور وتذكر أن أفعاله كلها حكمة.

فلو قلت: (سبحان الله أو الحمد لله أو لا إله إلا الله) المقصود من ذكره على لسانك أن ينصبغ قلبك بمشاعر أن الله حكيم، نريدك في هذا الموقف تذكر أن من صفاته الحكمة. وبمجرَّد ما تذكر الحكمة؛ ستكون النتيجة أنه أيًّا كان ما سيحصل ومهما تأخرت ساعة أو ساعتين أولًا: ستنجح في الصراع الذي في قلبك.

ثانيًا: سيريك الله كيف تظهر آثار حكمته في هذا التأخير، فالذي سيحصل أنك ستزداد إيمانًا.

حين تكون عندنا ذاكرة ونقول: المرَّة التي فاتت رأيتم كيف عندما تأخَّرنا ربنا نجانا من كذا وكذا، أكيد هذه المرَّة مثلها أو أحسن منها، حين تبقى ذاكرتك ستنتفع بها ويزيد إيمانك، فذكر الله هو ذكر أسمائه وصفاته-سبحانه وتعالى-فأنت عندما تسبِّح أو تهلِّل أو تكبِّر أهم شيء أن تتذكَّر الله وتتذكَّر الصفة التي يعاملك بها هنا.

مثلًا أنت في ضيق ولا تستطيع أن تأخذ قرار، فتسبِّحه وتهلِّله وتكبِّره وتذكر أن من آثار صفاته أنه يلطف بعباده فيحسن ظنك به أن يلطف بك! فترى آثار لطفه.

يضيق عليك الأمر فتذكر أنه حكيم، ينقص عليك المال وتأتيك غُمَّة لأنه لا يوجد مصروف، فتذكر الله فتتذكَّر من صفاته أنه رزَّاق، وأنه يرزق عباده من حيث لا يحتسبون، فمباشرة تزول الغُمَّة، ولكن هناك ناس نقول لهم: إن ربنا رزَّاق ويرزق عباده من حيث لا يحتسبون. ويقولوا: لكن ولكن...! نقول: نعم، هو الأمر على حسب الإيمان، كلَّما زاد الإنسان إيمانًا كان التذكير بصفات الله تجعله يعود.

قال:

"6- وكذلك التحدث بنعم الله الظاهرة والباطنة، فإن معرفتها والتحدث بها يدفع الله به الهم والغم، ويحث العبد على الشكر الذي هو أرفع المراتب وأعلاها حتى ولو كان العبد في حالة فقر أو مرض أو غيرهما من أنواع البلايا، فإنه إذا قابل بين نعم الله عليه - التي لا يحصى لها عد ولا حساب - وبين ما أصابه من مكروه، لم يكن للمكروه إلى النعم نسبة.

بل المكروه والمصائب إذا ابتلى الله بها العبد، وأدى فيها وظيفة الصبر والرضى والتسليم، هانت وطأتها، وخفت مؤنتها، وكان تأميل العبد لأجرها وثوابها والتعبد لله بالقيام بوظيفة الصبر والرضى، يدع الأشياء المرة حلوة فتنسيه حلاوةُ أجرها مرارة صبرها."

نبدأ بأول نقطة: مثلًا تمرُّ بأي ضيق سواءً كان صغيرًا أو كبيرًا. مما يشرح صدرك أن تجلس مع نفسك أولًا قبل الناس وتتحدَّث، ليس بكلمة مجملة إنَّما بالتفصيل، تقول: نِعم الله علينا كثيرة لا تعدُّ ولا تُحصى، عُدَّ وعُدَّ حتى تعجز عن العدِّ! (بصر) وهبك، (سمع) أعطاك، نتكلم ونسير على أقدامنا وأبداننا كذا وبيوتنا كذا وأزواجنا كذا وأولادنا كذا وبلدنا كذا...وعُد بكلِّ التفصيل الممكن، وأنت ستزداد عدًّا كلَّما رأيت العِبر، كلَّما رأيت الناقص شعرت بالكمال.

- مثلًا هل تشعر بنعمة الحرية؟ لا تشعر إلَّا عندما تسمع عن فلان لديه ديون وأخذوه إلى السجن! ذلك الوقت يتحرَّك قلبنا إلى نعمه الحرية.
- هل تشعر بنعمة النسب وأنك معروف وأن الله-عزَّ وجلَّ-شرَّفك بأنك من والدين...؟ ما تشعر به إلَّا إذا قيل لك كذا وكذا.
- هل تشعر بنعمة أن لك بيت تأوي إليه؟ لا تشعر إلَّا عندما قيل هناك أناس مشرَّدين ولا بيوت لهم وكذا وكذا...

وهذه العبر تدور حولك، ولكن مع دوران العبر ترى الناس مازالوا يمارسون البطر بقلوبهم قبل ألسنتهم، المفروض كلَّما رأينا ما حولنا ما نتوقف عن شكره-سبحانه وتعالى-، نحمده ونسأله-سبحانه وتعالى-أن يُبقي نعمه، وألَّا يؤاخذنا بما يقول ويفعل السفهاء منَّا، نحن مشكلتنا الحقيقية هي السفهاء هنا وفي العالم الإسلامي-وهم المشكلة الرئيسة-فحين يُترك السفهاء ولا يؤخذ على أيديهم والعقلاء لا يكونوا شاكرين على ما أنعم الله بهم عليهم، ذهبت النِّعم، وقلَّ نعمة تذهب عن قوم ثم تعود إليهم!

إذًا من العبادات التي نتقرَّب بها إلى الله قبل أن تكون سبب إلى انشراح الصدر: عَدُّ النِّعم، بمعنى كلَّما لقيت أن البطر دخل إلى نفسك وبدأ يضيق قلبك بأن المكيِّف عطلان، أو بدأ يضيق لأنه ينقصك في المطبخ كذا وكذا وجيراننا لديهم فرن كهربائي ونحن لا يوجد لدينا، وفلان عنده كذا ونحن لا يوجد لدينا...تبدأ المقاييس تزداد طمع، والحل أنه لابد لك من جلسة تعداد تعدُّ فيها نعم الله، وأنت متقرِّب إلى الله بِعَدِّ النِّعم، كلَّما كنت حكيمًا ستكون أكثر حساسية للنعم، وكلَّما كنت قليل الحكمة ستقول: ما الذي لدي زائد على الناس، بالعكس أنا ناقص! هذا لا يأتي إلَّا من السفه.

مما يشرح لك صدرك أن تتحدث لنفسك قبل الناس بعطايا الله وبنعمائه، فقلبك يفكِّر بالنعمة، ولسانك يتحدَّث بالنعمة، أول سامع للتحدث بالنعمة هو نفسك، فالذي ستقوله بلسانك راجع على نفسك، فإذا عاد لنفسك سيشرح صدرك.

لا تقول: الحمد لله نحن في نعمة. وتسكت، فليست هذه هي الطريقة المقصودة، الطريقة المقصودة أنك تعدَّها نعمة نعمة، إلى أن تجد نفسك دخلت في متوالية لا تنتهي من النعم، فلمَّا تدخل هذه المتوالية تعرف أنك حسَّاس، تعرف ما هي النِّعم.

أترى المنَّان كيف أعطاك النوال بغير سؤال وجعلك من أهل الإيمان من غير أن تطلب؟ وهبك أن تكون من أبوين مسلمين من غير ما تسأله، جعلك قريب من الحرم وتصل له بكل يسر وسهولة قبل أن تشتاق إليه، أتراه كيف أصحَّ لك بدنك وعقلك وسمعك وبصرك من غير أن تطلبه؟ كل هذا من عطاياه-سبحانه وتعالى-.

المقصد أن تعداد النعم وسيلة عظيمة لشرح صدر الإنسان نفسه، ما يضيق على الإنسان تعداد النِّعم إلَّا إذا وقع فيه السَّفه، فأصبح بطران لا يحس بنعم الله-عزَّ وجلَّ-.

وأنت تعد النِّعم ستجد أن المكروه الذي سبَّب لك الضيق سيُعد أيضًا من النِّعم! يعني تصوَّر سنين وأنت بعيد عن الله، ثم أصبت بمرض، وهذا المرض كان الخطوة الأولى نحو الاستقامة ونحو ذكر الله والتوبة عمَّا مضى وطلب حسن الخاتمة، ستكون المصيبة والبلية والمرض نعمة بحدِّ ذاتها إن كنت تفكِّر فترى الناس يحزنون عليك وأنت ترى أعظم مسرَّاتك أتت من هذا الباب، ولهذا ترى السلف يقولون على المرض "مرحبا بالمكفِّرات"! لماذا؟ لأن همُّهم عندما يخرجون من قبورهم يخافون أن يحملوا أوزارهم على ظهورهم، فلمَّا ينظرون إلى المرض النظر الحقيقي ويرون أن الشوكة كفَّارة ولو احتسبتها كفرت أكثر فأكثر فكيف بالحمَّى، انظر إلى الحرارة كيف تجعل الجسم يخرج العرق، فتخرج كمثله الذنوب لدرجة أنه يمشي الإنسان على الأرض ما عليه خطيئة!

وأعظم من ذلك من أسباب معيَّة الله المرض، ألم تسمع في الحديث لما يخاطب الله-عزَّ وجلَّ-المؤمنين من بني آدم: ((مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعِزَّةِ؟ فَيَقُولُ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، وَلَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي

عِنْدَهُ))[1] وهذه بشرى لأهل المرض أن الله معهم وإذا كان الله معك ((...كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ...))[2].

شرف عظيم، تصوَّري من عطايا الله في المرض أن هذا المريض بركته على نفسه وعلى من زاره، فلو زرته، استغفر لك سبعون ألف من الملائكة وتكون في خرفة من خرف الجنة، قال رسول الله-صلَّى الله عليه وسلَّم-: ((مَنْ عَادَ مَرِيضًا لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَ))[3] والخرفة حديقة من حدائق الجنة.

وهذا كله يحوِّل البليَّة إلى خير، وهكذا الفقر لو أصيب به أحد، كيف يتحقَّق في الفقر الانكسار الذي يحبُّه الله والذل الذي يكون في قلبك، ويحب الله هذه الكسرة والذل ويبغض الله الاستغناء عنه، فلمَّا تكون لاهيًا ومستغنيًا عن عطاء الله ويأخذ منك العطية فتنكسر فيحبك الله، فتكون البليَّة في عينك وهي في حقيقتها نعمة عظيمة.

بل المكروه والمصائب إذا ابتلى الله بها العبد، متى يكون المرض نعمة ومتى يكون الله مع المريض ويحب هذا الفقير؟ إذا أدَّى فيه وظيفة الصبر والرِّضى والتسليم، هانت وطأتها، وخفَّت مؤنتها، وكان تأمُّل العبد لأجرها وثوابها والتعبُّد لله بالقيام بوظيفة الصبر والرِّضى، يدع الأشياء المرَّة حلوة، فتنسيه حلاوةُ أجرها مرارة صبرها.

واعلم أن الدنيا كلها ذوق، أنت تذوق النعماء وتذوق الضرَّاء ذوقًا ذوقًا ولكن ما تعيشه، مثلا أُم ولدت سبع أبناء وعانت آلام الولادة في السبعة كلهم الآن بعد السبعة ماذا تذكر من آلامهم؟ لا شيء، وكل المضرَّات تذهب وتُنسى. لكن في وقتها استعين بالله واصبر فترتفع درجتك ويذهب الألم ويبقى الأجر عند من يضاعف الأجور ويبقى عند الغفور الشكور، فتأتي يوم القيامة وترى جبال من الحسنات لا تعلم عنها ولكنه عاملك بفضله ولذلك أول ما يقول أهل الجنة: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ* الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ}[4].

من فضله أي عاملنا بمغفرته وفضله ومضاعفة الحسنات ودخل الناس الجنات وهم لا يحصِّلون ذلك بمجرَّد عملهم، دائمًا طيِّب نفسك أن المكروه والمصاب ذوق كما أن النعماء ذوق وكل شيء في الدنيا ذوق، حتى لقاء الأحبَّة ذوق وحتى لقاء أبنائنا القريبين منَّا ذوق.

(1) رواه مسلم في صحيحه، (كتاب البر والصلة والآداب، باب عيادة المريض، 2569)
(2) رواه البخاري في صحيحه، (كتاب الرقاق، باب التواضع، 6502)
(3) رواه مسلم في صحيحه، (كتاب البر والصلة والآداب، باب عيادة المريض، 2568)
(4) [سورة فاطر: 34]

لو مثلًا عندي ابنة ذات العشرين سنة وعاشت معي عشرين سنة ثم زوَّجتها، وحين أزوِّجها كأنها ما عاشت العشرين سنة معي كأني فقط ذقتها، ثم تأتيني الخميس وتجلس من الصباح إلى الليل ثم عند ذهابها أسألها: ذاهبة...!، وهي كانت كل الساعات معي، حتى السعادة ذوق فالدنيا كلها ذوق فالمرض ذوق والسرَّاء ذوق كما أن الضرَّاء ذوق، كلها تذوقها، فتذوق السَّراء لتشتاق إليها ثابتة عليك فتكون مشتاق للجنة، تذوق الضرَّاء والألم من أجل أن تحذر النار.

تذوق هذا وهذا لكي تختار أنت لنفسك من هذا وهذا الطريق، فالدنيا كلها ذوق واقرأ في كتاب الله: {وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا}[1] {حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا}[2] فكل شيء مسٌّ وذوق وفي الآخرة النعيم-نسأل الله من فضله-هناك اجتماع الأحبة، هناك التمتُّع بهم، يقع النعيم الحقيقي، فإذا اقتنعت أنك ستذوق كل شيء ستمرر كل شيء وترى خيرة كل شيء، وترى كل شيء يحملك إلى الخير؛ لأنه أتى ممَّن يريد بكم اليُسر ولا يريد بكم العسر، والله لا يكلِّفنا ما لا نستطيعه، أحسنوا الظن به، يصبح على الأحداث نور تمشي به في الناس، أمَّا سوء الظن فكأن نور انطفأ وكأنك في ظلمة.

واعلم أن عدم العلم عن الله سبب لظلمة الحياة، انظر ماذا يقول-سبحانه وتعالى-: {أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ}[3].

كل من لا يعرف الله قلبه ميت! وعلى قدر ما تعرف الله على قدر ما يحيا قلبك، وكل من لا يعرف الله يعيش في ظلمة ولا يستطيع أن يسير مع الناس، وحين يعرف الله يقتبس نورًا يستطيع أن يمشي به مع الناس، تصوَّر لو هذه القاعة ظلام، ونريد أن نتحرك من أجل أن نأتي بمنافعنا من هنا أو من هناك، ما الذي سيحصل؟ أكيد سنصطدم ببعضنا ونتخبَّط، هذا سيفسِّر لك الواقع، فالذي لا يعرف الله في مؤسسة وفي مدرسة حتى في أماكن الخير، إذا لم يكن يعرف الله فالذي سيحصل أن الناس ستتخبَّط في بعضهم وسيظن أحدهم أن الآخر سينزع منه لقمته.

إذا عرف الناسُ اللهَ فقد حلَّقوا في الأفق الرحيب، أرض الدنيا زحام إذا لم يوجد لديك نور تمشي به لا بد أن تصطدم بالناس.

قال:

(1) [سورة الزمر: 8]
(2) [سورة الأنعام: 148]
(3) [سورة الأنعام: 122]

"7- ومن أنفع الأشياء في هذا الموضع استعمال ما أرشد إليه النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح حيث قال: ((انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم))، فإن العبد إذا نصب بين عينيه هذا الملحظ الجليل"

وهو ألَّا ينظر إلى من فوقه فستكون النتيجة:

" رآه يفوق جمعًا كثيرًا من الخلق في العافية وتوابعها، وفي الرزق وتوابعه مهما بلغت به الحال، فيزول قلقه وهمه وغمه، ويزداد سروره واغتباطه بنعم الله التي فاق فيها غيره ممن هو دونه فيها.

وكلما طال تأمل العبد بنعم الله الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، رأى ربه قد أعطاه خيراً ودفع عنه شروراً متعددة، ولا شك أن هذا يدفع الهموم والغموم، ويوجب الفرح والسرور."

هذه النقطة السابعة تؤيِّد النقطة السادسة، ففي السادسة نقول لك: عدّ النعم. والسابعة: لكي تزداد عدًّا لا تنظر إلى من هو أعلى منك، أطع أمر الرسول-صلى الله عليه وسلم-ولا تنظر إلى من هو أعلى منك، وامتثل هذه الآية القرآنية التي أمر الله فيها بعدم مدّ العين، يوجد موطنين أحدهم يخاطب الله-عزَّ وجلَّ-النبي ومن يصلح لهم الخطاب، قال تعالى: {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ}[1] أي لمَّا ازداد نصيبهم في الدنيا زادت الفتنة، قال تعالى: {لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ} فأنت نقص نصيبك في الدنيا وتبع ذلك أن نقصت الفتنة، كلَّما زاد النصيب في الدنيا زادت الفتنة، انظر إلى هذه الممارسة وكن حريصًا على ألَّا تقع فيها، غالبًا نمدُّ أعيننا إلى ما متّع به غيرنا وعندنا كثير من التعليل.

مثلًا تدخل بيت الناس وتقلِّب فرشهم لو بيدها وتتأمَّل فيه حق التأمُّل وبعد ذلك تقول لها: كم كلَّفتك ومن أين اشتريتها؟! أو مثلا تجلس بجانبك امرأة وتلفت نظرك ساعتها وطول الدرس أنت تنظرين إلى ساعتها تمام التأمل وتركِّزين فيها...!

قال تعالى: {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ} (لا تمدَّن) وليس لا تفكِّر، استعمل عبادة غض البصر على ما مُتّع به غيرك، أنتم الآن ألم تقولوا لأزواجكم غضُّوا أبصاركم! النساء رافعين راية غض البصر عن الرجال، ونسوا أنهم هم مأمورين أيضًا بغض البصر عن الرجال.

(1) [سورة طه: 131]

وأيضًا نحن مأمورين بغضِّ البصر عمَّا مُتِّع به غيرنا، ولا يحتال عليكِ الشيطان ولا يحتال عليكِ الناس لأن الناس يقولون: هو أمر طبيعي اسألي وأنا سأخبرك وأقول لكِ. وكثير من الناس يقولون: نحن نسأل لكي نوفِّر على أنفسنا الدوران في الأسواق. وفي الأخير ستدور في السوق ولكن تحتال على نفسها.

لكي تجعل قلبك واقف عند أوامر الله وتنتفع ولا يقع في قلبك حزن لا تعرف ما معناه على المدى الطويل، أطع ما أمر الله، وهذا ليس بكلامي ولا كلام علماء النفس ولا علماء الاجتماع ولا مصلحين اجتماعين، الله الذي خلقك يقول لك: {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ} لا تطلق عينك غضّ بصرك ثم لا تسأل عمَّا لا يعنيك، قال رسول الله-صلَّى الله عليه وسلَّم-: ((من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه))[1] يعني يبلغ الإنسان درجة الإحسان في الدين حين يترك ما لا يعنيه عندما:

- لا يمدّ بصره إليه.
- ولا يسأل عنه.
- ولا يتكلَّم فيه.

يجمع قواه كلها على ما يعينه على أن يصل إلى درجة الإحسان، ولذلك أصبحت درجة الإحسان صعبة لأن عقولنا وأسماعنا وأبصارنا مشتغلة فيما لا يعنينا.

إذًا من الأسباب التي تسبِّب السعادة أن ينظر إلى من هو دونه في الدنيا، والذي تكاد تراه أعلى منك تتعبَّد الله معه بعبادة غضُّ البصر، غضَّ بصرك عمَّا مُتِّع به غيرك.

والحمد لله رب العالمين

(1) رواه الترمذي في سننه، وصحَّحه الألباني.

الفهرس

اللقاء الأول 5
اللقاء الثاني 24